فخري باشا[1] والدفاع عن المدينة
ملحمة ومأساة

ناجي كاشف كجمان[2]

ترجمة : أديب عبد المنان

مدخل

كان بعض من الشباب العربي المثقف يطالب بالاستقلال عن تركيا ، وكانوا يسعون منذ زمن بعيد لتحقيق ذلك الهدف ، حتى تمكنوا من الاتصال ببعض الدول الغربية ؛ فقدمت لهم المساعدات السخية .

ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية قويت آمالهم ، وسعوا لحض الشريف حسين على الثورة ؛ أملاً في تحقيق غاياتهم . ولم يمض وقت طويل حتى رصد العثمانيون تطور حركة الاستقلال العربية ، وقبضوا على كثير ممن ثبت

---

(١) اسمه الكامل : عمر فخر الدين بن محمد ناهد بن عمر ، واشتهر بفخري باشا ، ولد في مدينة (روسجوق) في شمال تركيا سنة ١٨٦٨م ، والتحق بالمدرسة الحربية في إستانبول وتخرج فيها عام ١٨٨٨م ، وكان الأول على زملائه ، والتحق بدورات ملازمي الفرسان وأركان حرب . وعمل في الجيش الرابع في أزرنجان ، وكان متميزاً في عمله ، رقي عام ١٩٠٨م إلى رتبة وكيل رئيس أركان الجيش الرابع ، وشارك في حرب البلقان ، وفي مطلع الحرب العالمية الأولى عين وكلاً لقائد الجيش الرابع المرابط في سورية ، ثمّ كُلّف بالسفر إلى المدينة للوقوف على أحوالها ، فوصلها والشريف حسين يُعد لثورته على الأتراك ، ورفع تقريراً لقيادته بذلك ، فثُبّت في المدينة قائداً لحملة الحجاز في ١٧ يوليه ١٩١٦م وأضيف إليه منصب محافظ المدينة في ٢٨ أبريل ١٩١٧م ، وأدار العمليات العسكرية التي قاومت قوات الشريف حسين وحلفائه حتى سقوط تركيا بيد الحلفاء وتوقيع هدنة رودس في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨م ، وصدرت إليه الأوامر من استانبول بتسليم المدينة فرفضها واستمر في المقاومة نحو خمسة أشهر اضطر بعدها للاستسلام بضغط من زملائه وقيادته ؛ فاعتقل في مصر ، ثم مالطا لمدة ثلاث سنوات ، عاد بعدها إلى بلاده وتولى عدة مناصب سياسية وإدارية . توفي سنة ١٩٤٨م ، ودفن بناءً على طلبه في قلعة (روملي حصار) الشهيرة .

(٢) ولد ناجي كاشف كجمان في مدينة قوزان بتركيا سنة ١٨٩٤م ، وكان أبوه قاضياً فتنقل معه في المدن التي عمل فيها ، التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها برتبة ضابط ، عين في حامية المدينة المنوّرة ، وشهد الأحداث التي جرت فيها خلال الحرب العالمية الأولى ، أسر بعد استسلام الحامية ، ووضع في معسكر اعتقال بمصر لمدة ثلاث سنوات ، ثم عاد إلى بلاده ، وشغل عدداً من المناصب الإدارية والسياسية . كتب عدة مؤلفات منها هذا الكتاب الذي نشره بعنوان : الدفاع عن المدينة أو كيف انفصلت عنا الحجاز ، ويروي فيه الأحداث التي جرت في منطقة المدينة المنوّرة وشمالها خلال فترة الحرب العالمية الأولى ؛ وقد اقتطفنا منه أهم الأحداث التي جرت داخل المدينة المنورة بتصرف يسير .

تخابرهم مع الدول الأجنبية ، وحاكموهم بتهمة (خيانة الوطن) . ولهذا السبب لجأ الشريف فيصل ابن الشريف حسين إلى جمال باشا - قائد الجيش الرابع - وشكا له هذا الأمر باسم إمارة مكة الساعية وراء الدفاع عن حقوق العرب اسماً (اللاهثة وراء غاياتها الشخصية واقعاً) . واعترض على الأحكام الصادرة على المتآمرين مع الإنكليز ، ووصفها بأنها ظلم وتعسف ، وطالب بوقفها . وكان هذا بمثابة إشارة منه للشباب العربي الساعي وراء الاستقلال للتحرك بشكل سريع ، فاجتمع نحو ثلاثمائة شخص منهم ، واتفقوا على إحداث ثورات تعم الجزيرة العربية بأسرها ، لإشغال تركيا بهذه الثورات ، وحملها على تقليل قواتها في الجبهات الأخرى ، وبالتالي تحدث هزيمتها ، ودبروا برنامج تمرد حقيقي ، كان من المقرر أن يبدأ في (٢٣ مايو عام ١٩١٦م) ، وبثوا الدعاة في شتى أرجاء الجزيرة العربية .

فخري باشا في المدينة لتحري الأوضاع ومراقبتها

وفي تلك الأثناء كان الشريف حسين يطلب بإلحاح من الباب العالي أن يمنحه لقب أمير الحجاز ، وأن ينقل إليه حكم لواء المدينة المنورة مع تبوك ، وولاية الحجاز لأبنائه من بعده ، فرفضت الحكومة العثمانية أن تجيبه إلى طلبه هذا ، وذلك دونما تقدير للوضع آنذاك ، ولمساعي العرب للتمرد والاستقلال ، ولم تكتف الحكومة بالرفض ، بل أرسلت (فخري باشا) وكيل قائد الجيش الرابع إلى المدينة المنورة ، لتحري الأوضاع ومراقبتها .

وكان (بصري باشا) محافظ المدينة وقائدها قد قبض على أحد الدعاة ، وعلم منه ترتيبات التمرد ، والضالعين فيه ، وموعد بَدئه ، وبأية صورة سيكون ، وأرسل إلى نظارة الداخلية تقريرًا مفصلاً عن الوضع .

وكان في المدينة نحو خمسمئة من المتطوعين العرب قدموا من مكة للاشتراك في الهجوم على قناة السويس ظاهرًا ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يرمون إلى الاستيلاء على المدينة ، وقد أقاموا معسكرًا لهم بجوار (مسجد حمزة) في سفح جبل أحد ، على مسافة ساعة من المدينة ، في الشمال الشرقي منها ، وكان على رأس هؤلاء الأعراب الابن الأكبر للشريف حسين (علي) ، أما أخوه الآخر (فيصل) ، فتظاهر أنه قدم من دمشق إلى المدينة ، للقاء هؤلاء المجاهدين والذهاب معهم إلى القناة ،

وجاء ومعه أمر من جمال باشا إلى محافظ المدينة ، بمنح أولئك المتطوعة خمسمئة بندقية من طراز (موزر) سريع الطلقات .

وكان بصري باشا - محافظ المدينة وقائدها - يعلم تمامًا النية الحقيقية لعلي وفيصل ، ابني الشريف حسين ، فقام بتأخير خروج مفرزة اليمن ، التي كانت قد مرت بالمدينة في طريقها إلى إحدى الجبهات ؛ لحمايتها من البدو المسلحين الذين أحكموا سيطرتهم على الشعاب ، واستعدوا لاستقبال المسافرين برصاص بنادقهم ، والحيلولة كذلك دون الهجوم المتوقع أن يشنه البدو على المدينة ، إذ لم يكن بالمدينة قوة سوى فرقة المحافظ ، المعنية بحماية خط السكة الحديد .

محاولة القبض على بصري باشا وفخري باشا

وحاول الأشراف القبض على بصري باشا وفخري باشا من خلال دعوتهم إلى وليمة ، بمقرهم بجوار (مسجد حمزة) للاستفادة مما يتمخض عن ذلك من ارتباك في صفوف القوَّات التركية ، لكن بصري باشا لم يذهب إلى هذه الدعوة ، متعللاً باعتلال صحته ، وعلى الرغم من أنه رجا فخري باشا أن يعتذر عن تلبية تلك الدعوة ، والتذرع بأي شيء مثله ، لكن فخر الدين باشا مضى إلى موضع الدعوة مصطحباً معه عدداً من الضباط الخيالة ، وقد بدا واضحاً من تصرفات المتطوعة العرب ، وحركاتهم المريبة أثناء الوليمة ؛ أنهم على أهبة الاستعداد لتلقي إشارة إطلاق النار ، غير أن عدم تلبية بصري باشا الدعوة ، وانتظاره على رأس القوَّات التركية في المدينة ، حال دون تطبيق برنامج الهجوم المزمع . في حين كان من المؤكد أن يوم التمرد أصبح وشيكًا .

طلب بصري باشا وفخري باشا من جمال باشا أن يسمح لهما بالقبض على علي وفيصل ابني الشريف حسين ؛ لشل حركة التمرد ، إلا أنهما لم يتلقيا ردًا حتى ذلك الوقت .

بدء حركة التمرد

وبدأ التمرد بالفعل ، واحتل المتمردون ؛ يرأسهم علي وفيصل ابنا الشريف حسين الجبل المسمى (تبة العاص) ، وما حول بئر العوالي ، الذي كان يمثل المرحلة الأولى على الطريق السلطاني

المفضي من المدينة إلى مكة ، وجبل (جهنم) الواقع جنوب غربي المدينة ، والذي سوف يطلق عليه (تبة توقاد) .

وتقاطرت الكثرة المطلقة من المتمردين على (تبة العاص) ، ورفعوا أولى رايات التمرد ، وفتحوا نيرانهم على القطار المغادر من المدينة ، والمتجه إلى الشمال ، وكان بصري باشا محافظ المدينة وقائدها ، مستقلاً هذا القطار مع شطر من قواته ، وكان قد وصل حتى الجسر المقام فوق (وادي العقيق) ، فرد على وابل الرصاص ، الذي أطلقه عليه المتمردون المتواجدون في قمم المرتفعات الجبلية المحيطة ، يريد صدهم وطردهم .

وانبثت جماعة من المتمردين على طول خط السكة الحديد ، وقطعوا أسلاك التلغراف ، وعمدوا إلى قضبان السكة الحديد في المنطقة ، بين المحيط والحفيرة وربطوها بالحبال ، وجذبوا تلك الحبال بالجمال ، يريدون تخريب الخط .

وفي تلك الأثناء تم استدعاء كثير من القوَّات من الجنوب ، للاشتراك في قوة الحجاز ، فقدم المدينة في (٢٨ مايو) اللواء المئة والثلاثون ، والفرقة الحادية والأربعون من حملة البنادق الآلية .

أول حوادث القطارات

وفي يوم (٣٠ مايو ١٩١٦م) نزع البدو المسامير من خط السكة الحديدية ، وتركوا قضبانها بشكل طبيعي وكأنهم لم يحدثوا بها أي تخريب ، الأمر الذي تسبب في انقلاب إحدى القاطرات ، وكان ذلك أول حوادث القطارات في حركة التمرد بالحجاز .

تعيين فخري باشا قائد قوة حملة الحجاز

وأصدر جمال باشا أمرًا بتوحيد القوَّات القادمة من الشمال ، مع القوَّات الموجودة في المدينة ، وتنظيمها ، وتعيين فخر الدين باشا على رأس تلك القوَّات بلقب (قائد قوة حملة الحجاز) بصلاحيات قائد الجيش ، واتخاذ أشد التدابير صرامة لقمع التمرد في أقصر وقت ممكن ، ومهما كلف ذلك من تضحيات .

وبعد أن نظمت القوَّات واستكملت لوازم الحملة ، أصدر فخري باشا أول أوامره في (١٢ يونيو عام ١٩١٦م) بشأن الهجوم المزمع شنه على (العلاوة) (خلف جبل

جهنم) ، و(بئر علي) مقر علي وفيصل ، وقد أبلغ فخر الدين باشا الأمر إلى القوَّات والوحدات كافة ، ونصه :

أمر رقم (١)

١٩١٦/٦/١٢م

المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

« في الوقت الذي تقاتلون فيه - باسم الإسلام وباسم الدولة العثمانية ، وتجودون بأرواحكم ودمائكم في (غليبولي وأرضروم) والعراق - عدوَّنا الذي يسعى منذ سنوات للقضاء على الإسلام والعثمانيين ، تحرك المتمردون ، وقد استميلوا بمال أعدائنا ، واجتمعوا في نواحي المدينة المنورة ، وفوق خط السكة الحديدي ، وأقدموا على تخريب السكة الحديدية ، وقطع أسلاك التلغراف ، وأطلقوا نيرانهم على أبواب البلدة الطاهرة ، وأصابوا حراس الطرق .

لقد تلقى المتمردون السلاح من الإنجليز ، وينتظرون المدافع أيضًا ، وبناء عليه ، فإنه بعون الله تعالى ، أصدرت أمرًا بالهجوم على المتمردين » .

وفي (١٥ يونيو) صدر أمر بضرورة التأهب للزحف على مكة ، غير أن ذلك لم يكن بالأمر السهل اليسير ، فالمسافة كانت بعيدة ، والطريق وعر ، ومن الصعب تأمين سلامة خطوط المنزل .

مواجهة بين القوات التركية والمتمردين في العوالي وما حولها

اتخذ المتمردون قرى العوالي وقباء وقربان مأوى لهم ، وكان من اللازم تطهير تلك القرى من المتمردين تمامًا ، وزحفت القوَّات من المدينة المنورة ، في (٢٤ يونيو عام ١٣٣٢/١٩١٦م) ، وحدثت معركة ضارية ، أبانت عن شدة وبسالة عظيمتين ، وسقط عدد من المتمردين ما بين قتيل وجريح ، ونجح عدد آخر منهم في الفرار ، أما عساكرنا من فتيان الأناضول فقد كانوا يهابون الشمس أكثر من هيبتهم الرصاص ، وأصيبوا بالغثيان ، وتعرضوا للإصابة كذلك بضربات الشمس ، وقد أحدثت وقعة العوالي

أثرًا كبيرًا ، وبات المتمردون على يقين من أنهم يجب أن يخشوا سطوة الدولة .

ثم عكفنا على التدريب واستكمال الاستعدادات ، ولما استكملت القوَّات التركية استعداداتها للحملة ، تأهبت للتحرك قدمًا ، وكان من المتعين أن يتعقبوا الشطر الأول من المتمردين ، وبخاصة زعماءهم ، وربما كانوا سيتقدمون حتى مكة ، وفي (١٥ يوليو ١٩١٦م) صدرت الأوامر بتحرك القوَّات في اتجاه مجهول لشن هجوم على المتمردين .

وتجمعت القوَّات في (بئر علي) ، وفي صباح يوم الاثنين (١٨ يوليو) بدأ زحف لواء الهجين المغيرة وطابور البغالة ، واللواء الثاني والأربعين ، واللواء المئة والثلاثين ، والطابور الأول ، وسرية البنادق الآلية ، وكان على رأس تلك القوَّات فخري باشا قائد قوة حملة الحجاز ، وأركان حربه . واحتلت هذه القوَّات في الساعة التاسعة والنصف صباحًا موقع (بئر الماشي) بلا معارك .

غير أنه وفقاً للمعلومات المستقاة ، فإن المتمردين قد تشتتوا لدى القبائل بمناسبة حلول عيد الفطر ، ولم يبق مع رؤسائهم إلاّ نحو سبعمئة أغروهم بالمال ، وكان هؤلاء يرابطون في نواحي شعب (رابغ) وبحيرة (معجز) وشعب (الإعصار) على مسافة أربع أو خمس ساعات جنوب بئر الماشي . وكان على رأسهم الشريف علي .

وقد أشاع رئيس المتمردين كثيراً من الأراجيف بين العربان مؤداها : أن القوَّات العثمانية التي عاملوها وخبروها منذ أربعمئة سنة وعرفوا أنها مسلمة ، ما هي إلاّ ألمان كفرة . واقتنع المتمردون بذلك .

وكانت تتعالى صيحاتهم من الجبهة قائلة : (نصراني) ، فكان يقابلها تصعيد الأذان الإسلامي ، فيصيح العربان : (كذّاب) ويُمطرون المؤذن بوابل من الرصاص .

واستمرت القوَّات في تعقب المتمردين حتى يوم (١٣ أغسطس) استولت فيها على شعب الحج وبئر الرحمة وبئر خالص ، وقامت بطلعات استكشافية على بئر عباس الذي احتله اللواء الخامس والخمسين فيما بعد .

وكان الجو حاراً جداً ، وكانت الرياح تهب كأنها قادمة من الجحيم ، وفي الوقت الذي كانت تهب فيه تلك الرياح ، كانت مياه الصحراء تغلي ، ودرجة الحرارة تبلغ (٤٨ -٥٠) في داخل الخيمة ، وكانت البيضة تنضج إذا وضعت

تحت أشعة الشمس. وليس هذا فحسب ، بل إنه حدث أن سقط بَرَدٌ في حجم الجوزة أو البيضة بعد أن سقط المطر مدراراً في يوم (٤ أغسطس) ، فسبحان الله .

الصرة السلطانية تصل إلى المدينة

وفي تلك الأيام وصلت الصرة السلطانية التي كان يرسلها السلطان إلى مكة والمدينة ، واستقبلت بمراسم غايةً في الفخامة . وتشتمل الصرة السلطانية على الكسوة الجديدة التي كانت تصنع بشكل خاص ، من أجل الكعبة المعظّمة ، وكانت ترسل سنوياً من (إستانبول) من قِبل السلطان العثماني ، ومعها مال جزيل ، وهدايا قيمة لأهالي مكة والمدينة .

وكان من المنتظر أن تفتح القوات العسكرية طريق مكة المكرمة ليمضي أمين الصرة بما معه من أمانات إلى مكة ، وكان جمال باشا قائد الجيش الرابع يرى حتمية توصيل الصرة السلطانية إلى مكة ، ويخشى مما سوف يتركه إرجاعها من منتصف الطريق من أثر سلبي على مسلمي تركيا ، وما سوف يحصل من سوء ظن بالحكومة .

تأسيس أول صحيفة عربية

ولما كثرت دعايات الشريف ونشط إعلامه أسس فخري باشا في المدينة المنورة صحيفة عربية ، سماها : (الحجاز) ، وكان يرمي من وراء تأسيسها ؛ الرد على دعاية الشريف ، وحماية أفكار العرب المخلصين للدولة العثمانية من التسمم . وعلى الرغم من أنه استمر لفترة طويلة يصدر تلك الصحيفة ، إلا أنه لم يحقق كل الأهداف المرجوة منها ، بسبب قصور توزيعها ، وعدم تصديرها إلى الخارج بخاصة إلى ديار ابن الرشيد ، وابن سعود .

وعلى الرغم من وجود كثير من الفروع الموالية للحكومة ، من قبائل الحجاز ، لم يتأتَ لفخر الدين باشا الاستفادة الحقيقية منهم ، حتى في أعمال التجسس والدعاية ؛ وبمرور الوقت انضم هؤلاء إلى المتمردين واحداً تلو الآخر ، غير أن الشيخ حسين باشا المبيرك ظل على ولائه للخلافة والسلطنة ، على الرغم من تفاقم التهديدات ، وكثرة المصاعب حتى سقوط قلعة المدينة .

الحكومة التركية تعزل الشريف حسين

وخطت الحكومة خطوة ، فعزلت الشريف حسين ، وعيّنت أميراً جديداً على المدينة ، هو : الشريف حيدر ، ولأنه لم يكن

يعرف كيف يستعمل الذهب في الحجاز ، ولم يحاول أن يسأل شخصاً ممن لهم معرفة بذلك ، فلم يمضِ وقت طويل على وجوده في المدينة حتى مضى إلى جبال لبنان الخضراء ، ومياهها الباردة .

واستمرت المعارك بين جنود الحامية وعربان الشريف ، وأرسل فخري باشا برقية إلى بصري باشا محافظ المدينة ، جاء فيها : « إنه بسبب عدم تنظيم نقاط المنزل وقوات النقل ، وعدم توفر المؤن بمقدار كافٍ ، اضطررتُ إلى العودة بعد أن طاردت فيصلاً وزيداً حتى البحر ، وضيقت عليهما حتى التجآ إلى السفن الحربية للعدو » .

وفي (٣٠ ديسمبر) هبت ريح صرصر أعقبتها أمطار غزيرة ، وطغت السيول حتى غمرت كل خيام المعسكر ، وأغرقتها .

وفي أوائل شهر فبراير قامت ثلاث طائرات للعدو بقصف معسكرنا بالقنابل ، وخربت بعض أجهزة الهاتف .

وعلى الرغم من كل الجهود المضنية ، التي بذلتها تشكيلات المنزل ، ظل الجنود ينالون مئتين وستين (جراماً) من الخبز وحده ، ولكي يشبع الجنود جوعهم كانوا يأكلون العشب الذي يجمعونه من الجبال والوديان ، وكثيراً ما كان يأكل بعضهم من الأعشاب السامة فيموت .

طائرة إنجليزية تحلق فوق المدينة المنورة

وفي صبيحة يوم (٥ مارس) حلّقت طائرة إنجليزية فوق المدينة المنورة ، لأول مرة في تاريخ الإسلام ، إلاّ أنها لم تجد الفرصة كي تقترب من القبة الخضراء ، إذ بادرت إليها في التو طائرة عثمانية بالهجوم ، فما كان من الطائرة الإنجليزية إلاّ أن كرت راجعة ، من فوق معسكر العنبرية ، ومركز القيادة ، فقامت طائراتنا بمطاردتها إلى ما وراء جبل (جهنم) .

وفي أحد الأيام كان الأمير علي حيدر باشا يتنزه في الحدائق الواقعة عند رأس الينبوع الذي في شمال المدينة الشرقي. وكان المتمردون يعرفون ذلك جيداً ، فقدم الأمير عبد الله بقواته الموجودة في (العاقول) ، وكان قد دبر خطة لخطف الأمير الجديد ، في إحدى جولاته هذه ، ولما علم بذلك حيدر باشا ، وأدرك أنه لا جدوى من إقامته في المدينة ، بل اقتنع بضررها ، قرر المضي إلى جبل لبنان لقضاء الصيف هناك .

في (١٠ أبريل) ، علّق فخر الدين باشا (ميدالية) الامتياز الفضية التي كسبها اللواء الثاني والأربعون في معركة « جناق قلعة » العظيمة والدامية – بمراسم حافلة . وقام بتهنئة ضباطه وجنوده .

في صيف عام (١٣٣٣) ، بلغت القوَّات التي على خط السكة الحديدية من المدينة إلى (معان) عشرين طابوراً من المشاة وثلاثة ألوية للفرسان ، وأربع فرق مدفعية سريعة ، وعدة فرق من حملة البنادق الآلية والمدفعية العادية ، وأصبح من الصعوبة بمكان نقل المؤن والذخائر إلى هذه القوات الكبيرة ، وكان يجب أن لا تستمر هذه اللعبة الخطرة أكثر من هذا .

وقبل عدة أسابيع ، في ربيع سنة ١٣٣٣ أشار مركز القيادة العامة ولأول مرة إلى احتمال إخلاء المدينة ، ولكن جاء الرد من فخري باشا وبلهجة حاسمة : إن المدينة لن تُخْلى قط ، وأن التخلية ليست موضوع بحث ، وكان معلوماً أن حرارة الإيمان والعشق الذي في قلب فخر الدين باشا ومشاعره الدينية وراء هذا القرار .

قرار الدفاع عن المدينة المنورة

وصُرف النظر عن الجلاء عن المدينة ونشر بيان فيها . ولأهمية هذا البيان غير العادية ، وجدت من الضروري أن أعرضه :

المدينة المنورة ١٣٣٣/٤/١٢

في مارس من عام (١٣٣٣) ورد خطاب يحمل توقيع (الشريف) علي ، يقترح فيه استسلام قوة الحجاز المحاصَرة في المدينة ، بلا قيد أو شرط . وفي (٥ أبريل) من عام ١٣٣٣هـ ورد خطاب آخر ، يحمل توقيع (الشريف) زيد يطلب فيه كذلك تخلية « بئر الماشي » من قِبل قيادة قواتنا الموجودة في هذا الموقع ، ولكني – وتطبيقاً للشريعة الإسلامية – عرضت عليهما : أن يلقوا السلاح ، ويتوبوا من الحركة الجنائية التي أقدموا عليها ، فكان ردهما على عرضي أن أطلقا أربعة مدافع . وحسبما سمعت فإن فيصل بن الحسين قَدِم من الوجه ، وقطع سكة حديد المدينة ، ووقف لصد القوَّات القادمة من الشمال ، وقدم عبد الله كذلك وقطع سكة الحديد – وهو الطريق الوحيد للاتصال بين المدينة والشمال – من موضعين ، ومنع العرب من إدخال المؤن إلى المدينة . وبعد هذا ، فإما أن

تستولي قوات علي وزيد على المدينة طوعاً ، أو تسلم المدينة كرها نتيجة للمجاعة .

أيها الناس :

اعلموا أن جنودي البواسل الشجعان مكلفون بالدفاع عن المدينة المنورة ، وهي بؤبؤ عين الخلافة ، بكل التأكيد المعنوي ، حتى آخر قطرة دم وآخر جندي ، وآخر رصاصة ، وقد عزموا على ذلك عزماً أكيداً ، ولن ينكس علم العثمانيين الأحمر ، من على أبراج قلعة المدينة المنورة ، والقبة الخضراء ومنارة المسجد النبوي ما لم يدرج هؤلاء الجند في أكفان حمر مضرجة بدمائهم تحت أنقاض المدينة ، وتحت التربة الخضراء للروضة المطهرة .

أيها الناس :

إن هؤلاء المتمردين قد تورطوا في عدد من الأعمال الخسيسة في هذه الحرب العالمية ، تملقاً (للإنجليز) . ومثلما حلقت طائرة تحمل العلم (الإنجليزي) ذات مرة فوق المسجد النبوي ، فإن هؤلاء المتمردين لن يتورعوا عن نقب أسوار المدينة يوماً ما ، وإطلاق مدافعهم تجاه قبر المصطفى ﷺ . ومن المحتمل أن يقطعوا مواصلاتنا من النواحي والأطراف ، لتعجيزنا والتضييق علينا في العيش .

ومن ثم ، وللحيلولة بين المتمردين وتحقيق أهدافهم ، والدفاع عن المدينة بعون الله وعنايته ، اضطررت - مع الأسف - لأن أتقدم بالاقتراح التالي :

إن الذين يعملون معنا ويشاركونا مصيرنا برضائهم يستطيعون البقاء في المدينة ، **شريطة ألا يطالبوني بالمؤن مدة عام ، وغير هؤلاء ينبغي أن يرحلوا عن المدينة إلى حيث شاءوا ، إلى موعد غايته شهر أبريل** ، حتى لا يتعرضوا لعواقب ملحمة كبرى محتملة الوقوع ، بسبب الحرب ، أو القحط على السواء .

قائد قوة الحملة الحجازية

فخر الدين

رمضان في المدينة المنورة

إن التواجد في المدينة في شهر رمضان المبارك يُعدّ سعادة عظيمة ، فهو فرصة لطيفة وفريدة لمن لم تصدأ أفئدتهم بالاعتقادات الباطلة . فعلاوة على ما للحرم الشريف من روحانية تبعث الطمأنينة

في النفس ، فإن القناديل والشموع و(الكهارب) ، تبث النور في كل الجهات . والمنارة البيضاء المسمّاة (المنارة الرئيسية) التي على حافة القبة الخضراء مزينة بالمصابيح الكهربية من أولها إلى آخرها فهي بمثابة نور ، للذين فقدوا الهداية ، وضلوا الطريق وسط الصحراء ... .

ولأن الحر كان شديداً للغاية ، لم تكن تُصلَّى التراويح داخل الحرم الشريف ، وكانت هذه الشعيرة الدينية تؤدي في الهواء الطلق ، بحديقة الحرم الشريف التي وسَّعها السلطان عبد المجيد خان ، ساكن الجنان (بإذن الله) .

وفي ثاني أيام العيد ، حُمل المحمل الشريف الذي تمَّ تجهيزه في محطة المدينة جرياً على العادة ، على جمال مزينة ، وتحركت أولاً فرقة الموسيقى العسكرية وأغوات الحرم الشريف ، والموظفون المدنيون ، والضباط على اليمين والهجانة على اليسار ، وكان فخري باشا ، والأمير ابن الرشيد ، وأمين الصرة ممدوح بك ، يمسكون زمام الجمل الفضي الطويل الحامل للصرة ، وذهبوا إلى الحرم الشريف على تلك الهيئة ، ووضعوا المحمل الشريف في موضعه الخاص .

الجوع والحمى ينتشران في المدينة

فيما كانت هذه المراسم مستمرة كان حال الجند في سوء . فقد انتشرت حمّى مروعة في نواحي المدينة ، ومرض (الإسقربوط) المفلج والمزمن ، وتفشت هذه الأمراض بين الضباط والجنود . وزادت الأعباء المعيشية .

ولم تبق هناك طاقة على السير في القطاعات ، وتضاعف هذا الإرهاق بجمع الحطب من الجبهة لضمان حركات القطارات الجالبة للمؤن من الشمال ، وانخفضت إمكانية التحرك إلى ٣٠٪ تقريبًا في كل طابور .

يطبخ جثة ويبيعها طعامًا

وفي (٢٣ يناير ١٣٣٣) تلقينا نبأ واقعة غريبة . وهي : أن رجلاً من قبيلة قدمت من بلاد الحبشة ، وكانت تسكن في أكواخ من الصفيح على أطراف المدينة ، أخرج جثة امرأة دفنت لتوها ، وقطع أفخاذها وأذرعها ، ووضعها في كيس (جُوَال) ، ثم ذهب إلى السوق فباعها ، وفيما هو قادم إلى كوخه ، قبضت عليه الدوريات ،

واعترف في التحقيقات التي أجريت معه أنه اضطر إلى ذلك ، وأنه باعها في السوق بعد أن طبخها في قدر .

لقد وصلت المجاعة إلى هذا الحد ، وبدأت القطط والكلاب التي في الشوارع تختفي واحدة تلو الأخرى .

لم يكن بمقدور (الشريف) حسين أن يلحق الهزيمة بقوة الحملة ، وكان من اللازم إما أن يحضر القوّات الإنجليزية ، أو أن يسمح بدخول عساكر مستعمراتهم من المسلمين الموجودين بمقدار أكبر إلى المدينة ومكة ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وقرر الاكتفاء بالمعارك على طول خط السكة الحديد .

صمود وإعمار

ولم يكن مدافعو المدينة يخشون عدوهم ، وبدأوا يتوافرون على إعمار المدينة دون أن يعطوا أهمية للمناوشات البسيطة ، واستمروا يعمرونها ويشيدون مؤسساتها . وكان من المقرر شق طريق فسيح للغاية حتى قبالة باب السلام ، وكان من المقرر أيضاً توسيع الحرم الشريف مسافة أربعين متراً تقريباً ، وإنشاء حدائق جميلة . وكان من المتعين اتخاذ تدابير إزاء احتمال عدم كفاية الغاز الموجود لأهم وسائل الحرب والدفاع ، مثل التلغراف . وعليه تم إنارة حجرات المعسكر والمنزل ومركز القيادة والمنشآت العسكرية عامة بالكهرباء . وبذلك تم الاستغناء عن الغاز ، وتوفير الكمية التي كانت ستستهلك فيها .

وعندما بلغت الحرارة درجة مسببة للمزيد من المتاعب سأل جمال باشا قائد الجيش فخر الدين باشا عما إذا كان يريد ثلاجة ، فرد عليه قائلاً : إنني فقط وحدي أشرب خمس عشرة جرة ماء في اليوم . وتستطيع من ذلك أن تقدر احتياج العساكر ، أيحتمل الثلج هذا الحر يا باشا ؟

وبعد زمن يسير أقيم مصنع للثلج في المدينة ، وبدأ في توزيع إنتاجه .

تقنين الحصص الغذائية

وقد كان توزيع الأرزاق لكل ضابط شهرياً على النحو التالي :

النوع	كيلو	جرام
أرز	-	٥٠٠

النوع	كيلو	جرام
سكر	١	٥٠٠

(برغل)	٣	-
عدس	١	-
فاصوليا	١	-
بطاطس	١	-
زيت عادي	١	-
زيت زيتون	١	-

قهوة	١	٥٠٠
شاي	-	٥٠
تمر	-	٥٠٠
قمر الدين	١	-
جق	-	٥٠٠

ولكل جندي في اليوم

النوع	كيلو	جرام
خبز	-	٣٥٠
سكر	-	١٠
شاي	-	١
قمر الدين	-	١٠٠

النوع	كيلو	جرام
لحم مقلي	-	٣٠
زيت زيتون	-	٤
بطاطس	-	١٠٠
ملح	-	٣٠

وكان يوزع على الحيوانات كيلو ونصف من القمح يومياً .

وصية جمال باشا

حصل جمال باشا على لقب القائد العام لغرب شبه الجزيرة العربية وسوريا ، وترك منصبه في قيادة الجيش الرابع تلك الأيام ، وبلّغ وصيته لكل القطاعات . وجاء في وصيته الأفكار الآتية بشأن قوة الحملة الحجازية :

(إن قلبي مفعم بمشاعر الامتنان والإعجاب بأصدقائي الذين يذودون عن المرقد النبوي الشريف وأماناته المقدسة منذ سنة ، ويحافظون على منطقة الحجاز بقوات بسيطة ضد القوّات الفرنسية والإنجليزية المشتركة مع المتمردين .

وأثق ألاّ يكون أبناء الوطن المجاهدون في سبيل رسول العالمين وأوامر القدرة الإلهية وأحكامها بعيدين عن الحماية الربانية حتى النهاية) .

وليس مفهوماً أكان جمال باشا بهذا التقرير يريد التغطية على الخطأ الذي ارتكبه بشأن تمرد الحجاز أم أنه كان يطلب العفو من آباء وأمهات الشباب التركي الذين استشهدوا برصاص المتمردين ، ومن إخوانهم وأراملهم وأطفالهم .

مكانة فخري باشا لدى جنوده

وفي ٢٧ فبراير خرج فخري باشا لتفقد سكة الحديد في منطقة (مدائن صالح) ، فلما عاد إلى المدينة جرى له مراسم استقبال حافل ، وزين مركز القيادة بالأعلام والزهور وأغصان النخيل و (السجاجيد) . حتى إنه عُلِّقَت لوحة كتب عليها (مرحبا) . ومع وصول القطار إلى المدينة أطلقت الألعاب النارية الهوائية . وكان فخر الدين باشا يبدو وكأنه غير مسرور بهذه المظاهرات الزائدة . غير أن المقيمين في المدينة كانوا محقين في أن يظهروا سرورهم بهذه الصورة الحسنة ؛ لأن إحساساً بالإحباط والتعب كان قد أصاب الضباط والجنود وحتى الأطفال الأيتام الذين فقدوا آباءهم ، وفخري باشا كان قائدنا ووالدنا على السواء . وكنا نثق في مقدرته العسكرية ، ونؤمن أنه سوف ينقذ المدينة . لذا كان حقاً علينا الاحتفاء بعودته . وقمنا بهذه المهمة .

وفي ٤ مارس ١٣٣٣ قدمت المدينة الفرقة السابعة عشرة للسكة الحديد والمكونة من مئة وثمانية وأربعين شخصاً وخمسة ضباط . وكانت هذه الفرقة تشكل آخر قوة تعزيزية حجازية . فبعدها لم يأت جندي واحد ولا بندقية ولا مدفع .

المؤسسة الصحية في المدينة

كانت قوة الحملة الحجازية توفر أهم الاحتياجات الصحية بمستشفى الجرحى ، الذي بقي ميراثاً من محافظة المدينة . وكان بناءً منتظماً لا بأس به ، بنيت جدرانه من حجر غاية في السمك وذلك من أجل حماية المرضى من الحر الخانق في تلك الجهات . وكان يتوسطها حديقة لاستراحة المرضى وتجولهم .

وبعد فترة من الحصار سعى سيف الدين بك وكيل كبير الأطباء ، سعياً حثيثاً كي يعيد التعاملات القديمة للمستشفى ، بشأن العلاج والإعاشة . غير أنه - بسبب انعدام الإمكانيات - لم يكن بالإمكان الإبقاء على نفس مستوى تلك التعاملات . ومهما يكن من شيء ، فإن الكنف الدافئ للهلال الأحمر ، الذي أشفق على مدافعي المدينة في أيام الحصار المريرة ، ترك آثاراً عميقة في ذاكرتهم .

وعلاوة على المؤسسات الصحية ، التي أنشئت داخل المدينة ، فقد أقيم مستشفى متنقل في بئر علي . وكان هذا المستشفى مجهزاً (بالشطف) المصنوعة من جريد النخل المنقول على الجمال ، وكانت (الشطف) مغطاة بأغطية بيضاء . ولاقت هذه الوسائل - التي استخدمت من أجل نقل المرضى الذين اشتد مرضهم إلى المركز - استحساناً كبيراً .

وعلاوة على هذا ، فإنه كان هناك أقسام ذات عشرة أو عشرين سريراً ، في مركز كل طابور ، وكان في داخلها أماكن ظليلة مغطاة بالخيام ، أو أشجار الصحراء .

وأقيمت صيدلية صحية للمدينة لتوفير شتى أنواع الأدوية ، وكان مخزون الصيدلية من الكثرة بحيث إن حكومة (الشريف) استفادت منه بشكل كبير بعد سقوط القلعة ، وأنقذت مرضاها بهذه الأدوية .

وأثناء الحصار ، ظهر وبشكل مرير عجز في الصيدلية الصحية . وكان هذا العجز نوعيًا . فبينما كان هناك فائض في بعض الأدوية - مثلاً - كان بعض الأنواع الأخرى قد نفدت تماماً ، ولم يتبقَّ منها ذرة .

ولم يبدُ أي من الأمراض (الفيروسية) أو المُعْدِيَة بين قوة حملة الحجاز في صورة وباء (باستثناء نزلات البرد المعدية الأخيرة) ، ونادراً ما كانت تظهر حالات (التيفود والدزنتاريا) . ولم تسرِ هذه الأمراض إلى جهات أخرى . ونتيجة للأبحاث الطبية التي أجريت تم التأكد من أن من أصيبوا بأمراض كهذه كانوا من العساكر القادمين من الشمال .

وكانت الأمراض التي تعالجها مستشفيات القوة العمومية الأساسية هي :

١- الحمى .

٢- الإسقربوط .

٣- حالات إسهال البلاد الحارة .

٤- وباء (الأنفلونزا الأسبانية) .

وكانت الحمى هي أهم مرض في صفوف قوة الحملة ، وكانت حالات الإصابة به تقل في فصل الشتاء وتكثر في فصل الصيف . وكان المصابون بالحمى يمثلون

نحو (٩٠ أو ٩٥ ٪) من نزلاء المستشفيات . وفي خلال العامين الأولين قبل إغلاق طريق الشام (دمشق) كان يوزع المصل على القوَّات ، ثم أصبح المقدار الموزع لا يكفي - نسبياً - المرضى ، بسبب إغلاق الطرق والحصار المفروض . فظهرت الحمَّى بشكل مزمن ، ثمَّ ظهرت حالات الحمى الخبيثة ، وحمى الطحال ، فأودت بالكثيرين .

وقد تفشى وباء الإنفلونزا بواسطة الهجانة الذين كانوا يأتون بالسكر والأرز من الساحل لقوة الحملة ، وفي غضون أسبوع تفشى على نطاق واسع ، وظهر بين جميع صفوف القوَّات العسكرية التي كانت في الأصل مرهقة وخائرة القوى ، وفقدت جانباً عظيماً من المناعة ضد الأمراض . ولهذا السبب أحدثت الأنفلونزا تلفيات واسعة النطاق ، ونالت من القوة المعنوية للباشا القائد ، فأصدر الباشا الأمر التالي للمستشفيات : « وضِّحُوا لنا سبب كثرة حالات الوفاة إلى هذا الحد » .

وأوضحت المستشفيات في ردودها أهم مسألة موجعة لقلب القائد ، وقالت : إن ذلك المرض إنما كان نتيجة للضعف الناجم عن نقص المؤن . وهو أقوى عامل في حالات الوفاة ، وكان بعض من أصيب بوباء الإنفلونزا يموت أثناء نقله إلى المستشفى .

وكانت القوَّات العسكرية تضمحل يوماً بعد يوم ، ويصيبها الإرهاق ، وكان الجوع والعري يؤثر تأثيراً كبيراً في العساكر .وكانت الوجبات اليومية في أوائل شهر مارس كالتالي :

« ٣٥٠ جرام دقيق أو خبز ، وجرام شاي واحد ، وعشر جرامات سكر صباحاً . وظهراً ٨٠ جرام برغل و٣ جرام زيت زيتون . أما مساء فـ ٨٥ جراماً برغل مع ١٥ جرام أرز و٣٠ جرام ملح يومياً . وكان يصرف كيلو ونصف قمح للحيوانات » .

وكانت مشكلة المؤن لا تزال في بدايتها وبإمكاننا أن نعتبر أن الصيام لم يكن قد بدأ بعد . ومع ذلك ، بدأت حوادث الهرب الفردية من المواضع المختلفة للجبهة ومن داخل المدينة . والمثير للانتباه أن أول من فر كان من العساكر العرب . وفي ٦ مارس احتشد قسم عظيم من القوَّات المرابطة بجوار المدينة أمام (الحصن

الأحمر) وحضر فخري باشا ، وبذل النصائح لهم ، وشرح لهم سوء عاقبة الفرار . لكن ذلك لم يجدِ شيئاً .

وفي ٩ مارس ١٣٣٤ تواترت الأنباء بعقد الصلح مع روسيا ، واستعادة ألوية قارص وباطوم وأردهان ، وزينت الوحدات والمؤسسات العسكرية كافة بالأعلام والقناديل والمصابيح الكهربية ، وأقيمت المواكب تتقدمها فرق الموسيقات العسكرية ، وشارك في ذلك حتى المرضى الذين في طور النقاهة ، وأقيمت ألعاب المصارعة وعروض (الأراجوز) .

وفي الحرم الشريف صعدت الأدعية بنصرة الجيش ، وفي المساء تم توزيع الحلوى ، والأرز باللحم ، ونقيع العنب على الجنود ، كما وزع على كل واحد منهم رغيفان زيادة على الاستحقاق المقرر .

وفي يوم ٢٢ مارس قامت سرية البغالة بطلعة استكشافية في جبهة (بئر الماشي) تحت قيادة اليوزباشي إسماعيل أفندي . فقتل ثلاثة من البدو في المعركة التي دارت مع المتمردين الذين خرجوا لدفع قوات السرية ، وتخلى المتمردون عن كثير من جرحاهم في أرض المعركة ولاذوا بالفرار ، فغنمت القوَّات أسلحة القتلى وستين جملاً وسبعة حمير وست عشرة شاة .

القطار يغادر المدينة حاملاً التحيات والأشواق

وفي ٢٤ مارس ١٣٣٤ أنفذنا قطاراً من مدينتنا إلى أهالينا ، وحملناه بآخر خطاباتنا وتحياتنا ، وكان هذا القطار يزعق بحدة وكأنه كان يعرف أنه لن يعود ثانية .

ولم يكن أحد من الزملاء في قوة الحملة يهتم بصيحات كتلة من الحديد والصلب ، فهم فحسب كانوا يفكرون في مهامهم في الدفاع المقدس ، وكانوا محقين في ذلك ، لأنهم كانوا أبطالاً وقفوا أجسادهم على الدفاع عن القبة الخضراء[1] ، وعقدوا أكيد العزم على إدامة الخدمة التي كان يؤديها الجيش العثماني منذ قرون .

المدينة تحت الحصار

حُوصرت المدينة ، لكنه لم يكن لمن حوصر فيها خبر عن هذا ، وكان كل شيء محاطاً بالسرية ، وبُذل السعي لإعادة تحقيق الارتباط مع الخارج مثلما كان الشأن من قبل .

---

(١) لعله يرمز بذلك للدفاع عن المدينة وما تمثله من قيم إيمانية (المراجع) .

ولم يترك فخري باشا أي قائد في معان وعمان ودرعا إلاّ وأخبره ، ولم يبق موضع في دمشق أو إستانبول لم يسمع باستغاثة حُماة المدينة الأتقياء ، وكانت البرقيات التي أبرقها قائدنا الفاضل مؤثرة وموجعة للقلوب . وعلم حماة المدينة أنهم قد تُركوا وحدهم ظلماً وبصورة لا تليق بزمالة السلاح .

وفي الأيام الأخيرة ، كان حطب القطارات العاملة فيما بين المدينة ومعان يجمع من غابة (الغزيل) بجوار المدينة .

وكانت عربات القطار تحمل الحطب إلى الشمال ، وتعود قطارات المؤن بالحطب الذي تحضره من معان . وكان ذلك مهمة شاقة وخطرة للغاية بالنسبة لعمال القطار . وكان هناك خوف من أن يكون قد وضع لغم في نقطة العودة من المدينة حتى معان . والحقيقة :أن العمال والجنود كانوا يعملون بفدائية . وكان الباشا القائد يكرم عمال السكة الحديد وخاصة السائقين الذين يأتون بالقطار سالماً ، وكان (يعقوب أفندي) من طابور السكة الحديد مكلفاً بسوق آخر قطارات المؤن . وكان عدد قطارات المؤن التي مرت إلى الجنوب قبل إغلاق الطرق خمسة عشر قطاراً ، كل قطار منها يتكون من ثماني عشرة شاحنة . وكان ذلك أهم خدمة للهيئة العامة لأركان الحرب ، التي قدمت من إستانبول إلى المدينة ، من أجل التحقيق في إمكانية النقل بالسكة الحديد .

ديوان أحباء الحجاز

في (٩ أبريل ١٣٣٤) نشر فخري باشا بياناً تعهد فيه ببقاء الجنود والضباط في منطقة قوة الحملة ، حتى نهاية حركة الحجاز ، وأعلن أن من قبلوا هذا التعهد سوف يحظون بشرف التسجيل الذي فتح باسم :(أحباء الحجاز) . وكثير من هؤلاء لم يكن يعرف أن خط السكة الحديد قد أغلق ، وبعض من يعرفون ذلك كانوا يفكرون في أنه من المحتمل أن يفتح الطريق من جديد ، وكانوا يسكتون لكيلا يفتحوا جراحاً في قلوب من يتلقون هذا الخبر المؤلم .

وتم فتح (دفتر أحباء الحجاز) وتسابق كثير من الضباط والجنود لنيل هذا الشرف ، ومما يسترعي النظر فيه هو توقيع الباشا القائد بالحبر الأحمر في أوله .

ولَبِسَ الباشا في إصبعه أحد خواتم (الجهادية) وكان مصنوعاً من النيكل ، الأمر الذي كان له وقع حسن بين أبطال حامية المدينة .

كان الوعد بالبقاء في منطقة قوة الحملة ، حتى نهاية عملية الدفاع عن الحجاز ، مسألة على جانب من الأهمية ، فمن جهة تَأَتَّى للباشا القائد الوقوف على مدى إمكانية أن يثق برفاق سلاحه ، ومن جهة أخرى الوقوف على مدى تقبل جنود الحملة فكرة جيش المتطوعين ، من حيث الهدف. وكانت التجربة تجري بنجاح ، وكان الضباط والجنود يتعجلون الانضواء تحت راية التطوع التي رفعها فخري باشا ، وتسابقوا فيما بينهم لتسجيل أسمائهم في (دفتر أحباء الحجاز) . وكان لزاماً علينا أن نضع نصب أعيننا ، بعض العوامل الاجتماعية والروحية ، في هذه التجربة العسكرية ، التي بدت بسيطة في ظاهرها .

كان يمكن القول إنه لم يكن من الممكن أن يطير طائر أو تمر قافلة ، دون الاستئذان من الباشا ، لكن من عاد أدراجه ممن استأذنوا الباشا ومضوا إلى الشمال كانوا قلة ، وبذلك أضاع الباشا كثيراً من قادة وحداته الأقوياء ، ولهذا كان يضغط بشدة على الاستئذان في الغياب ، وكان يعمل لتحقيق موازنة دائمة ، وأي عجز يسير في ميزانية القيادة كان من الممكن أن يكون خطيراً . ولم يكن من المتصور التفريط في أي شخص في الخدمة ، وكان ينتظر من كل واحد أداء مهام فوق طاقته حتى وفوق طاقته البشرية .

وفي يوم الجمعة ٢٧ أبريل ١٣٣٤ كان ذكرى تربع السلطان على عرش الدولة ، وأقيمت المراسم جرياً على العادة ، وأقيمت المقابلات الرسمية ، وقرئت الأدعية ، وأقيمت الاحتفالات ، وأطلقت صواريخ الزينة .

ولكن كان هناك مرض يسحق قوة حملة الحجاز من الأعماق ألا وهو الفرار من الخدمة .

جمعية الحض على الفرار

لماذا بدأ بعض الجنود العرب بالفرار ؟ ثم سرى منهم إلى صفوف الجند الأتراك ؟ كنا نسمع أن حالات الفرار كانت بسبب المعاملة السيئة التي كان يتعرض لها الجند على يد الضباط في الجبهات ،أو بسبب تعرضهم لخطر عدم العودة إلى أوطانهم الأصلية ، ولكن اكتشفنا بعد ذلك جمعية سرية تحضّ من في

داخل المدينة من جند العرب ومن يخالطهم من جند الأكراد والأتراك والجراكسة على الفرار .

وأحيل أعضاء تلك الجمعية السرية إلى ديوان الحرب وحوكموا وأدينوا ، وحُكم بالإعدام على عدد منهم كانوا من أهل المدينة ، وغصت ساحة الإعدام بالجند وكثير من الأشخاص المدنيين ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٣٠ أبريل ؛ وسيق المحكوم عليهم بالإعدام مقيدي اليدين إلى الساحة الواقعة على حافة محطة السكة الحديدية ، وتم إعدامهم رمياً بالرصاص .

التدابير التي اتخذت من أجل تحقيق الانضباط في المدينة أثناء الحصار

مضى نحو شهر على بدء الحصار ، وثمة رأي يقول : إن التاريخ ما هو إلاّ حوادث تتكرر ، وأياً كان رأي من يؤيدون تلك المقولة أو يعارضونها ، فإنه في تاريخ كل حصار هناك صفحات قاتمة وصفحات أخرى مشرقة ، وكل ذلك يتكرر بوقائع منفردة متعاقبة . وكل الوقائع الداخلية والخارجية في القلاع المحاصرة الأخرى كانت تحدث في تعاقب وكأنها حوادث جبرية اضطرارية طبيعية .

وكانت حوادث القتل والسرقة تحدث في شوارع قلعة المدينة وبيوتها وحدائقها المحيطة ، وقد اتخذت بعض التدابير الصارمة لمكافحة وقوع الجرائم من سلب وقتل ، ومنع تجول أي شخص أو أي جندي بعد الظهر بين المحلات باستثناء الدورية المسلحة .

ونتيجة لتطبيق هذه الأوامر الصادرة وتنفيذها بدقة ، تمَّ مكافحة الوقائع الداخلية اليسيرة والجزئية ، المخلة بالأمن والنظام .

حامية المدينة تأكل الجراد بدلاً من اللحم

تم التفكير في وسيلة لتوفير السعرات الحرارية الناقصة في غذاء الأفراد والضباط وسد حاجة قوة الحملة من اللحم . فقام فخر الدين باشا بإبلاغ هذا التدبير التالي في ٧ يونيو في الأمر اليومي :

توصيات خاصة بشأن الجراد

ما الفرق بين الجراد والعصفور ، أهو عدم وجود ريش له فحسب ؟ ، فلديه هو الآخر جناح يطير به ، ويتغذى على النبات ، وهو شرس كالعصفور أيضاً عصبي مثله ، ينتقي ما يأكله بعناية ؛ وكان على مائدة مركز القيادة أمس

مقلاة جراد ، وطعمت منها مع زملائي فألفيتها ألذ من (علب اللسان) ، كما أن سلطته مع عصير الليمون وزيت الزيتون غاية في اللذة .

والحاصل أنه بالأمس كنا نفكر في وسيلة لطرد الجراد من الحدائق والقضاء عليه ، أما اليوم فنبحث عن وسيلة لجلبه . وأرجو من زملائي أن يرسلوا إلي الجراد على سبيل الهدية ويستفيدوا منه بالوجه الذي شرحته .

قائد قوة حملة الحجاز

فخر الدين

قُدمت مقلاة الجراد التي أعدت في مفرزة مركز قيادة قوة الحملة أولاً إلى الباشا ، وكان الجميع يتبادلون النظرات ويتغامزون بالعين متسائلين : ماذا سنفعل ؟ كيف سنأكله ؟ ومع هذا أراد الباشا أن يجعل من نفسه قدوةً لأصدقاء مائدته ، ولكنني انتبهت إليه جيداً ، فوجدت أنه برغم البشاشة التي علت وجهه والابتسامة التي ارتسمت في عينيه ، كان يبتلع الجراد المقلي بصعوبة . ودعوت الله ألاّ يتبقى شيء قط في الطبق ريثما يأتي الدور عليَّ ، لكن الله لم يتقبل . ولم يكن من الممكن إلاّ أن آكل من لحم الجراد اللطيف لأن الباشا كان ينظر إلى طبق كل ضابط وكأنه يراقبه ، وكان يزيده إذا ما نقص ، وكان يريد أن يأخذ من طبقه ليضع في بعض الأطباق الناقصة ، ومع ذلك كان يعرب عن استمتاعه بلذة الجراد .

العذاب والحرمان أثناء حصار المدينة

ذكرنا فيما تقدم أنه لم يعد أمام حامية المدينة إلاّ أن تعتمد على نفسها ، دون انتظار أي مساعدة من أحد ، فقد أغلقت طرقنا ، ولم تعد المؤن تأتينا من الشمال ، ولم يكن ممكنًا تطبيق هذه النقطة في كل مسألة ، وفي كل شيء . ومع هذا فقد اتخذت بعض التدابير من أجل إيجاد علاج لآلامنا .

وحاول المتمردون مجدداً ، وضع قنبلة في برج القلعة الداخلية للمدينة ، في الأيام الأولى ، غير أن هذه القنبلة لم تسفر عن أية خسائر . وفي ليلة ٢٨ -٢٩ مايو ١٣٣٤ تسللوا إلى (المحيط) ، وهي محطة في شمال المدينة ، وصَفُّوا القنابل على خط السكة الحديد وفجروا إحدى عشرة قنبلة في كل صف بانتظام ، وخربوا قطاعاً

من السكة الحديد ، وسمعت أصوات القنابل في المدينة ، وبدت أضواء المواد المنفجرة من التلال المجاورة .

طعام الجنود يقل والحيوانات تموت جوعًا

وفي تلك الأيام أصبح توزيع الوجبات للجنود على النحو التالي : ١٠٠ جرام دقيق ، و٢٥٠ جرام تمر ، بدلاً من النقص في الخبز ، و١٠٠ جرام تمر عوضاً عن السكر ، و٢٢٥ جرام تمر عوضاً عن الطعام ، و٨٠ جرام برغل ، و٣٠ جراماً لحم ، و٢٠ جراماً ملح ، أما الحيوانات فلم يكن يُصرف لها علف ، وكان هذا بمثابة (أمر بإعدام قوة الحملة) ؛ وكان فخري باشا يهرع إلى أي خندق تنبعث منه إشارة الاستغاثة ، ويصل كالبرق إلى أي جبهة يسمع منها صيحة التماس العون .

وقد كتب برقيات استغاثة عديدة إلى دمشق واستانبول على السواء لتأمين تحركات القطارات بين دمشق والمدينة ورفع الحصار ، ولكن دون جدوى فأدركت قوات الحامية أن لا سبيل إلى الخلاص إلاّ بالصبر والتوكل والعزم والثبات.

وقد نفق أكثر من ثلاثة آلاف حيوان لأنه لم يكن من الممكن صرف العلف لها ، وانتهى الأمر بالجياد والبغال والحمر إلى أن بدأت تأكل الرمل لإشباع جوعتها ، وقد جَدَّ الحراس والرعاة في منع الحيوانات من ذلك ، غير أنهم فشلوا . وفي الأيام الأخيرة للحصار لم يبق إلاّ نحو ثمانين أو مئة منها .

وفي ١٧ يونيو ١٩١٨م (١٣٣٤) وردت أنباء من الرياض -وهي ديار ابن سعود - أعدنا صياغتها بشكل جذاب ، وأذعناها على قواتنا في منشور فحواه : أن ثمة جمعية للإخوان تشكلت من أشخاص تقاة متدينين إلى أبعد الحدود ، أن هؤلاء الأشخاص يمثلون القوى الرئيسية المحركة في إمارة ابن سعود ، وأن أعضاء جمعية الإخوان هذه كانوا على أتم استعداد للتضحية بأنفسهم في سبيل أفكارهم ومبادئ طريقتهم ، وأنهم يعدون خروج (الشريف) حسين على الخليفة وتمزيقه شمل المسلمين ووحدتهم بهذه الصورة ذنباً لا يغتفر ، ويعتبرون (الشريف) حسين وأتباعه كفرة مارقين ، وأنهم زحفوا من مناطقهم بعتاد تلقوه من الأمير ابن سعود ، وأن أقصى أمانيهم هي إلحاق الهزيمة بأتباع (الشريف) حسين وطرد المتمردين والكفرة من مكة .

التمر ؛ الطعام
الوحيد لقوة
الحملة

لم يبق لدينا غير التمر، والحقيقة : فإن تمور المدينة - وهي التي حظيت ببركة دعاء الرسول ﷺ - اكتسبت شهرة واسعة ، بأنواعها المتميزة التي لا توجد في أي بقعة أخرى من بقاع العالم . وفي الآونة الأولى كنا نلتهم كميات هائلة من (الرطب) ، وكانت الأوقية منه تباع بعشرين (بارة) أو ما يعادل قرشين من العملة الفضية . وفي تلك الآونة لم نكن نعرف فوائده ، وكانوا يحرسون الخبز إلى أن يوزع الطعام بتمامه . والماء المثلج فقط هو الذي كان متوافراً بكثرة ، وتستطيعون أن تشربوا منه قدر ما تريدون . وكنا لا نشبع من شرب ماء المدينة الصحي للغاية عندما يثلج ، وكان يعطي لذة لا يمل منها . وكل كوبين من الماء يحلان محل رغيف من الخبز . وعليه فقد كان كل شخص يتناول عدة جرعات ، ريثما يأتي الباشا إلى المائدة ، وعندما يخرج الباشا كانوا يبدؤون في توزيع الطعام ؛ ولكن أي طعام هذا الذي كان يُنتظر كل هذا الانتظار ، إنه مثلاً نبات صحراوي يشبه السبانخ يسمى ملوخية ، وأرز بالتمر ، ومسحوق قمر الدين بزيت الزيتون . يا الله فيما كنا نأكل مسحوق قمر الدين هذا ، ماذا كنا نبلع ، لقد كان شيئاً كريه الطعم ، كان عذاباً ، لكن ما حيلتنا في ذلك ؟ كان من الممكن أن نربط حجراً على بطوننا ، لكن لم نكن نستطيع أن نأكل التراب .

كان لفخري باشا لفتات رحيمة أبوية أثناء الحصار ، وتُدرك هذه اللفتات بالإمعان في أوامره اليومية ، التي كان ينشرها . وكثيراً ما كان يُصرِّح لقوات الحامية : « إنني أوكد لكم أنني أحبكم كأبنائي » .

قراءة القرآن أهم وسيلة لرفع الضيق وانشراح الصدر

كان يلزم الضباط والجنود مساعدة إلهية ، من أجل بثّ الأمل في نفوس البائسين بصفة خاصة ، ورفع قواهم المعنوية ، ولهذا كانت أقدس وأسمى وسيلة هي قراءة القرآن الكريم ، بصورة منتظمة .

والحقيقة أنه فيما كان قرَّاء القرآن الكريم ، يقومون على حراسة ضريح الرسول ﷺ ليل نهار ، كانوا يشعرون بانشراح فريد وعظيم في قلوبهم ، وحتى

لو كانت قلوبهم تفيض ألماً وحزناً ، قَبْلَ قِرَاءَةِ القرآن ، فإنه قبل إكمال صفحة منه يشعرون بأن الضيق في أرواحهم قد زال ، وأن القلب قد انشرح فجأة .

وهذا الشعور ، وهذه اللذة ، تفيض أكثر في الروضة المطهرة ، فبعد دخول الروضة مباشرة تتجرد النفوس من الدنيا وما فيها ، والواقع فإنه لا حدَّ لهذه اللذة المعنوية ، التي يستشعرها المتديِّنون على وجه الخصوص .

مشكلة الماء أثناء الحصار

من المعلوم إلى أي مدى كان لآبار الماء قيمة عظيمة ، في العمليات العسكرية ، في الصحراء ، وفي الأقاليم الحارة ، وقد أشاد فخري باشا بثلاثة من قادة الفِرق ؛ اجتهدوا لسدِّ احتياجات جندهم ، وحيواناتهم ، وحدائقهم من الماء ، وأذاع البيان التالي :

« بينما كان حلمي أفندي قائد الطابور الثالث للواء الثاني والأربعين يقوم بعمليات التنقيب عن الماء ، في النواحي ، بسبب تناقص الماء في آبار (جليجلة) عثر على فوهة بئر مندثر في الرمال ، وكان هذا البئر واقعاً على الطريق السلطاني[1] تماماً ، وكان يمتلئ بماء السيول . فبدأ حلمي أفندي في الحفر في ذلك الموضع ، بالاستعانة بجند الطابور الأبطال ، وبفضل ما بذله هؤلاء من جهد موفور ، ظهر سور بئر ، كان قد اندثر في الرمال . وبعد فترة تم اكتشاف بئر منقطع النظير في تلك الجهات ، وكان ينزل إلى قاعه بسلم منتظم ، وكانت مياهه أكثر لذة وبركة من مياه (جليجلة) وبئر (لحب) . وقد سميت هذا البئر (بئر حلمي) تقديراً لهذا السعي والهمة ، ولهذا سمّوه أيضاً (بئر حلمي) على الخرائط . ثم تبع هذا الضابطَ في صنيعه ضباطٌ كثر ، كلهم حذا حَذْوَه ، فاستبطوا الماء ، وسميت الآبار بأسمائهم (كبئر أمين) ، (وبئر زكي) تقديراً لجهودهم .

أعز الله هؤلاء الرجال الثلاثة كما أعز الماء » .

وفي أحد الأيام أصدر فخري التنبيه التالي :

« راعني أن كل الدكاكين كانت مفتوحة ومستمرة في عملية البيع يوم الجمعة الماضي وقت الصلاة ، وقد أصدرت الأوامر اللازمة لرئاسة البلدية للقضاء على هذه الظاهرة القبيحة وإغلاق الدكاكين وقت الصلاة ، وقد منعت منعاً

---

(١) الطريق السلطاني : هو الطريق الرئيسي العام .

قطعياً تسكع الأفراد في الشوارع قبيل وقت الصلاة ، واستنفادهم الوقت في البيع والشراء أمام الدكاكين . وإنني لَفَتُّ نظر قيادة الموقع بهذا الشأن . كما أوصيت بعدم تدخين رعاع الناس السجائر والنرجيلة في الشوارع في منطقة السور الداخلي القريب جداً من الحرم النبوي الشريف ، وسوف تتصدى قيادات الشرطة والبلدية لكل من يضبط مخالفاً لتلك الأوامر » .

كان فخري باشا يتصرف بحساسية شديدة إزاء نظافة جنود قوة الحملة ، وكان يصدر الكثير والكثير من الأوامر في هذا الشأن . وأقدم لقرائي أحد هذه الأوامر بنصه :

« يقوم أطباء الوحدات بفحص الجند أسبوعياً ، ويشرحون لهم تأثير إصابات الفم ، وينتبه كذلك قادة السرايا لأفواه جندهم ، ويفتشون عليها في كل اجتماع ويحدثون جندهم يومياً عن إصابات الفم .

يقوم الجند المصابة أفواههم باستعمال مضمضة قاتلة للميكروبات ثلاث مرات يومياً ، ويدهن الأطباء أفواه الجند المصابة بالمراهم والأدوية القاتلة للميكروبات.

ويتولى قادة السرايا والطوابير والألوية وأطباؤها أداء مهامهم بالحديث عن النظافة وأمراض الفم ، ويسجل في دفاتر الوقائع الصحية كم شخصاً أصيب بإصابات الفم ؟ وكم شخصاً يقوم بتنظيف جسمه وأسنانه ؟ وأي دواء يستعمل ؟

وينبغي تحري الدقة في معرفة ما إذا كان الجنود يبلعون (السلفات) التي تقدم إليهم أم لا ؟ ؛ إذ إن بعض الجنود يبصقون السلفات بعد أن يتجرعوها ، فينبغي التأكد من أنهم يبتلعونها)) .

وفي هذه الأيام لم تكن تحدث وقائع في الجبهات وعلى طول السكة الحديد ، كل ما هنالك أن زوار المستشفيات من الضباط والجنود قد كثروا . ولم تكن الأدوية التي كانت تمنح لهم تكفي من حيث النوع والجنس لشفائهم .

ثمة سؤال لم يكن من السهل الإجابة عنه ، وهو : إلى أي مدى سوف تستطيع قوة الحملة أن تدبر احتياجاتها من المؤن ؟ . لقد قمت بالتحريات اللازمة لذلك وسعيتُ لتحديد مقدار المؤن الموجودة في مستودعات المخزن في شهر يوليو ١٩١٨م على نحو تقريبي ، وطبقاً لهذا البحث كانت المؤن الموجودة كالتالي :

النوع	المقدار
ملح	٩٠ كجم
بقسماط	٨٠ كجم
عنب جاف	٣٣ كجم
قمر الدين	٣٩ كجم
أرز	٥٠ كجم
سكر	٦ كجم
زيت عادي	١٦ كجم
زيت زيتون	١٥ كجم
تمر	٣٥٠ كجم
شياه	٤ رؤوس

لاقت الحملة الإهمال الزائد ، ولكنها عاشت فحسب بشعلة إيمان قلوبهم ، ومنحت قيادتها وسام الصليب الحديدي . ورغم أن هذا التكريم كان يحمل ذكرى عظيمة للأمة المحاربة ؛ فإنه لم يكن يليق ببطل المدينة المتدين من حيث وظيفته ومكانته . ومع ذلك فإن هذا الوسام كان خدمة عظيمة . وفي إحدى أيام المراسم استعد الباشا ليعلق ذلك الوسام على صدره ، فاعترض العلماء المسلمون المتشددون على شكل الوسام ، ولم يروا من المناسب تعليقه . وعليه ادعى الباشا القائد عدم جواز الشريط الحريري الأسود والأحمر الذي اعتاد أهالي المدينة على تعليقه على رؤوسهم منذ زمن بعيد ، على اعتبار أن كل ثنية منه على شكل صليب . وبناءً عليه إن كان تعليق هذا الوسام ليس جائزاً فإن استعمالهم ذلك الشريط (الكلاه) غطاء للرأس ليس من الجائز أيضاً بأي شكل من الأشكال .

وسكت أهالي المدينة ولم يعقبوا على كلام الباشا . ولكن في اليوم التالي قام الأهالي بسد الصلبان التي كانت تتشكل على غطاء الرأس بأقمشة ملونة من الحرير .

الوضع الاستراتيجي لقلعة المدينة

وصلنا إلى نقطة تحول في تاريخ محاصرة المدينة ، وسوف تبدأ المدينة في الانكماش شيئاً فشيئاً . ولهذا سيكون من المفيد الحديث عن الوضع الاستراتيجي لعساكرنا على طول السكة الحديد ومحيط المدينة ، وذلك من حيث تأثيره على القرار الصادر بشأن الأيام الأخيرة للدفاع عن المدينة .

كان باب القلعة يُعدُّ طريقاً لسكة الحديد ، وبناءً عليه كان يرابط على تبة (المهد) ، الواقعة على شمال غربي المدينة ، فرقة من المشاة من الطابور الثاني للواء الثاني والأربعين وبطارية مدافع صحراوية ، تابعة للواء المدفعية الخامس والخمسين ؛ وكان الطابور الثاني للواء الخامس والخمسين منتشرًا من غرب تبة (المهد) ، حتى نقطة شرطة خالد باشا الموجودة شمال جبل أحد .

بعض أبطال حامية المدينة

وإليكم الآن بعض من اضطلعوا بمهمة الدفاع عن المدينة وما يليها والقوات التي كانوا يرأسونها :

إسماعيل روحي بك وكيل قائد اللواء الخامس والخمسين في المدينة ، وقائمقام رئيس لجنة الاستحكام . و (اليوزباشي) عارف بك قائد الطابور الثاني لهذا اللواء في (منطقة العيون) ، و(البكباشي) صائب بك قائد اللواء الثاني والأربعين في (بئر ماشي) ، و(اليوزباشي) عثمان بك قائد الطابور الأول ، والسرية الحادية والأربعين للبنادق الآلية في المدينة ، وسرايا الاستحكام والزراعة والبرق السلكي واللاسلكي . وفي (جليجلة) كان (اليوزباشي) حلمي قائد الطابور الثالث للواء الحادي والأربعين ، و(البكباشي) توفيق بك قائد مدفعية المدينة ، ووكيل قائد لواء المدفعية الثامن والخمسين في جبل (سليع) ، و (اليوزباشي) جلال بك قائد الطابور الأول للواء ، و (اليوزباشي) خليل رحمي ، قائد الطابور الثاني .

وكان على رأس هؤلاء الباشا القائد ، رئيس هيئة أركان الحرب ، ومستشاره العسكري (الميرالاي) علي نجيب بك ، والقائمقام أمين بك وكيل رئاسة هيئة الأركان ، و(اليوزباشي) إبراهيم بك وكيل مدير شعبة الحركة الأولى (أركان حرب الفرقة الثامنة والخمسين) ، وناجي (كيجمان)[1] ضابط الاستراحة ،

(١) مؤلف هذا الكتاب .

وسائل تخابر حامية المدينة

ووكيل مدير شعبة الشؤون الشخصية الثانية ، وعبد الرحمن بك مدير شعبة المحاكم الثالثة ، و(القائمقام) صبري بك مدير شعبة الإدارة الرابعة ، والطبيب كمال بك وكيل مدير الشعبة الخامسة ، و (البكباشي) بيطار وهبي بك مدير الشعبة السادسة .

كانت قوة الحامية تتخابر مع وحداتها وجماعاتها وقيادتها العامة بوسائل متنوعة ، هي :

١- مركز المدينة الثابت للبرق اللاسلكي .

٢- مركز البرق اللاسلكي الصحراوي .

٣- مركز البرق المدني .

٤- مكاتب البرق التابعة لمحطات سكة حديد الحجاز .

٥- مركز الهاتف .

مركز اللاسلكي الثابت :

أنشئ هذا المركز بين جبلي أحد و (سليع) شمال غربي المدينة في أرض مسطحة تفضي إلى حدائق نخيل (العيون)[1] ، وكان مركزاً على نظام الهاتف الألماني ، سعته (١٠ كيلووات) .وكان يتم تشغيل هذا المركز بالغاز نظراً لتبخر (البنزين) ونفاذه بسرعة في البلاد الحارة .

كان الأفراد والضباط الموجودون في جبهة القلعة ، وعلى طول خط السكة الحديدية - وبسبب ارتباطهم الوثيق والدائم بالمركز - يسمعون أصغر حادثة أو شائعة تتردد داخل المدينة ، وكانوا يجتهدون لإصدار مجموعة من الأحكام حسب رأيهم .

وقد أعار الباشا القائد هذا الأمر اهتماماً منه . وفي الوقت نفسه فإن مثل هذه الشائعات والوقائع كان يتردد صداها إلى جبهة العدو ، فتبث فيه اليأس عندما يدرك أن صمود القلعة سوف يستمر لفترة طويلة . ومن الطبيعي أن يكون هذا وسيلة جميلة بالنسبة لنا . وكان من أبرز الحوادث التي لها تأثير على المتمردين مداومة (سَرِية) الاستحكام على نشاطها بشق الطرق وتنظيم الشوارع ، وكل من يطالع هذا من الجنود والضباط كان يقول : مادام هناك اهتمام وجهد يبذل

---

(١) **ويسميه أهل المدينة : « الترسيس »** .

لشق طرق وتنظيم شوارع بهذه الدرجة في المدينة ، فهذا يعني أن الباشا القائد لا يفكر بالتخلي عن المدينة والجلاء عنها ، وأنه واثق من أن القلعة سوف تبقى في أيدينا ، لذلك فهو يداوم على إقامة مثل هذه المشروعات ويرعاها .

وعندما تصل أنباء مثل هذه الأعمال إلى المتمردين ، كانت أحلامهم - حول سقوط القلعة قريباً - يصيبها التزلزل والانهيار .

ولكن هذه المؤثرات الضعيفة لم تكن كافية للشد من أزرنا من أجل الدفاع عن قلعتنا ، وكنا في حاجة إلى وسائل دفاعية أخرى بطبيعة الحال ، وذلك من أجل إذكاء أمل النجاح في نفوس جنودنا ، وعلاوة على ذلك تقويض آخر آمال المتمردين . وقد تولى هذه المهمة (أيضاً) سرية الزراعة ، وكانت هذه السرية تابعة لشعبة زراعة المنزل ، ويتزعمها (اليوزباشي) شكري أفندي ، وكان زهدي بك الذي ظل في المدينة أثناء الحصار والذي عُيِّن مديراً للزراعة يتولى الإشراف على هذا التشكيل .

الشؤون الزراعية أثناء الحصار

وقد توزعت سرية الزراعة على المأموريات الزراعية لـ(قباء) و(قربان) و(العوالي) و(بلادي) و(جمجوم) و(بركة) و(عيون) و(عين موسى) و(الطيارية) و(السكرانية) .وأسندت قيادة كل قسم منها إلى ضابط ، وكانت هذه المناطق قوامها مزارع النخيل والحدائق الواسعة المحيطة بالمدينة .

وكل ضربة فأس كانت تضربها سرية الزراعة على الأرض تعني صاعقة تهوي على رأس زعماء المتمردين ، إذ إنهم كانوا قد أدركوا منذ فترة طويلة أنهم لن يستطيعوا اقتحام القلعة حرباً ، واضطروا إلى التعلق بآمال تجويع المحاصرين .

والواقع فإن المساحات في المدينة وما حولها شاسعة ، ويمكن زرعها قمحاً وشعيراً واستثمارها ، إلاّ أن ذلك لم يحدث لضيق الوقت .

وعلى الرغم من أن تلك الأرض كانت على درجة عالية من الخصوبة ، إلا أن من اللازم ري الحقول يومياً لإنقاذها من شدة حرارة الشمس . وكانت شتلات الباذنجان والفلفل تستطيع أن تحافظ على حياتها حتى أربع أو خمس سنوات وتغل محصولاً ، وترتفع البامية أطول من قامة الإنسان ، وهي ذات أزهار على الدوام ، ويكثر الخيار ويتوفر بكميات هائلة ، خاصة الخيار الصيني الذي يبقى طازجاً على الدوام ، وتنمو أحسن أنواع البطيخ ، في حين يكون الشمام عديم اللذة ،

ولا يسع أي إنسان إلاّ الانجذاب إليه بلونه ورائحته . وهكذا كانت مهمة سَرية الزراعة تنقسم إلى قسمين ، أحدهما : تنظيم المشاتل من أجل توفير الحاجة من الخضروات ، وكانوا يسمون كل واحد منها (حيف) ، والحيف هو الحديقة التي تُروى من مصدر ماء واحد ، وهي حدائق قباء ، وقربان والعوالي ، والداودية ، وبركة والطيارية والسكرانية والزهرة والشنبية وعين موسى .

أما القسم الآخر فيتمثل في استغلال المناطق القابلة لزراعة الحبوب ، وهي حقول قربان وعوالي وبركة والمدافعية والجرابية والعباسية والزهرية والحيدرية والصديقية والمقبولية .

إجراءات إصلاحية جديدة

تم تعيين صفوت زكي - من ضباط الاتحاديين ومستشاري الجيش القدامى - على وكالة النيابة ، ومصطفى كمال بك - من خريجي الحقوق - على مجلس التحقيق .

وبعد مرحلة الحصار أُلغي ديوان الحرب العرفي ، فكان المذنبون الذين يستحقون العقاب سواء كانوا من الأهالي أو من العسكريين يساقون إلى ديوان الحرب الدائم . وكان أعضاء ذلك الديوان يتغيرون بحسب الضباط ذوي الرتب الكبيرة . وكان من بينهم أيضاً (ضيا أفندي) من رجال القانون .

وقد حاكم ديوان الحرب العرفي الشيوخ الذين شجعوا (الشريف) حسين وأبناءه وقت العصيان ووقفوا بجانبهم ، وبعض الذين بذلوا لهم العون فعلياً ، والمتسببين في (وقعة العوالي) ، وبعض الضباط المتهمين بالإهمال في أداء مهامهم أثناء سقوط (ينبع البحر) ، وأحيل إلى ديوان الحرب العرفي كذلك محاكمات بعض الأشخاص المتهمين بالتجسس ، وجرائم أخرى . وصدر الحكم غيابياً على بعض الشيوخ الذين شجعوا على التمرد بالإعدام .

نزاهة الباشا

ومثلما كان هناك قرارات صدق عليها الباشا ، أو قرارات أعيد النظر فيها ، كان هناك قرارات بالصفح والعفو .

ولم يكن فخري باشا - لقناعة شخصية - ينظر إلى أي شخص على أنه مجرم مذنب ما لم يحكم عليه ضميره ووجدانه بذلك ، ولم يكن في الإمكان تنفيذ الحكم الصادر بشأن ذلك الشخص ما لم يحكم ضمير الباشا بإدانته .

الأجانب في مركز قيادة المتمردين

كان هناك (قائمقام إنجليزي) في معسكر (الشريف) عبد الله ، وكان يضطلع بمهمته كمتخصص في تخريب خط السكة الحديد . غير أن هذا (القائمقام) المسكين ترك حقيبته الخاصة وأوسمته وميدالياته لمجموعة من أبطالنا على خط السكة الحديد ولاذ بالفرار .

وكان رؤساء مركز قيادة المتمردين الموجود في الشمال الغربي لتبوك ، و (الشريف) فيصل ، يتوسلون ويستنجدون بسادتهم من الأغنياء (الإنكليز والفرنسيين) ، وفي النهاية تلقوا منهم العربات المصفحة والمدافع الصحراوية والطائرات .

وقد فُهم سريعاً جداً أن هذه الاستعدادات كانت ضد حامية (المدورة) التي قدمت من المدينة . وقبل طلوع صبح يوم (١٦ أغسطس ١٩١٨م) حاصرت قوات الأعداء حول المحطة ، وأصبحت الحامية وجهاً لوجه مع قوات تفوقها عدداً وعدة ، وانهالت على الحامية التركية طلقات المدافع ، وحلقت فوق رؤوسها الطائرات ، وكان الأعراب يجوبون النواحي والأطراف . ولم يكن بإمكانهم عمل شيء من تلقاء أنفسهم ، وكانت كل آمالهم معلقة على قوات العدو النظامية . وماذا كان باستطاعة حماة المحطة المساكين أن يفعلوا ؟ ألم يكن لكل شيء حد ونهاية ؟ ومع كل هذا صمد الحماة .

ومرت الأيام ولم يبق مكان خفي عليه ما حدث. وكان حقاً على حماة المدينة أن يتخذوا من البطولة والفدائية التي تجلت في المدورة مثلاً يحتذى . وكان من الطبيعي ألاّ يهمل الباشا القائد هذا .

وبات من المتعين شغل المحاصرين بأي شكل من الأشكال ، وقد صادف ذلك المرة الأولى لمراسم تنظيف حجرة الحرم النبوي الشريف ، والتي كانت تقام في العام مرتين .

فخري باشا يشغل المحاصرين بخدمة المسجد النبوي

وفي يوم الأربعاء الموافق (٢١ أغسطس) رأس الباشا القائد قافلةً تتألف من الضباط والجنود الذين أرسلتهم الوحدات والتشكيلات للخدمة داخل الحجرة النبوية الشريفة ، بمراسم خاصة . وفي يوم الخميس تم غسل رخام الحجرة

المطهرة ، وفي اليوم الذي يليه وهو يوم الجمعة تم تنظيف قناديلها واحداً واحداً . والحقيقة ؛ فإن دخول الحجرة النبوية الشريفة شرف ما بعده شرف ، وسعادة ما فوقها سعادة . ولهذا كان الجميع يهرعون إلى تلك الخدمة . ولكن كان ذلك يتطلب من القائمين بها صدق النية ، والمشاعر الدينية . ومن الناس من لم يكن يستطيع أن يتحمل ثقل خطاياه وذنوبه ، فكان يحجم عن حمل هذه المهمة على عاتقه ، فكان يحرم نفسه من نيل هذه السعادة ، والبركة الدينية .

وكذا فقد عُني فخري باشا بشأن الطبوغرافيا في المدينة ، كما أسس مدرسة اللوازم لتعلم تأمين كل ما تحتاجه الحامية والمحافظة عليه .

وكذا ألقيت محاضرات على المحاصرين في الشؤون كافة ؛ العسكرية ، والعلمية ، والطبية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، وغير ذلك .

وقد أيقن المتمردون بأنه لن يتأثر صمود قوة الحملة بأي شكل من الأشكال إلاّ من خلال مسألة المؤن ، فكانوا يدسون الخبز المسموم إلى داخل المدينة . الخبز المسموم

غير أنه في اليوم نفسه كان قد أذيع البيان التالي بشأن خبز مسموم وُجد في نواحي (بواطة) :

« وجد نوع من الخبز دسَّه المتمردون في نواحي (بواطة) . ونتيجة للكشف والمعاينة تبين أنه خبز مسموم . وإزاء احتمال أن يكون قد وزع من هذا الخبز المسموم في جهات أخرى ، أرجو الحيطة واليقظة ، وإجراء التنبيهات اللازمة على الجند » .

الحالة المعنوية للجند أثناء الحصار

وعلى الرغم أن الاتصال كان مستمرًا بين حامية المدينة والوطن الأم ، فإنه وبسبب عدم استطاعة الشمال تقديم مساعدة ولو يسيرة إلى حامية المدينة ، فقد استمر الشعور باليأس والقنوط .

وعلى الرغم من أن حماة المدينة لم يكونوا يعتدون بعدوهم ، فإن مقاومتهم للمشكلات والمصاعب ، التي تجشموها في الداخل - كانت تتضاءل مع مرور الأيام .

وكانت الجهود تبذل من أجل تشجير المنطقة المحيطة بالحرم الشريف ، وكذا المدرسة (المحمودية) - وهي المدرسة التي كان السلطان محمود قد أنشأها بين باب الرحمة وباب السلام - وكان من المقرر تحويل تلك المدرسة إلى ميدان فسيح .

وفي السنة الأولى من حركة العصيان كان يبدو أن رؤساء المتمردين يحترمون المشاعر الدينية للعرب . ولهذا كانوا لا يريقون الدماء في الأيام المباركة ، بخاصة في الأشهر الحرم ، ولا يشنون غاراتهم ، وكانوا يتظاهرون باحترام الأساس الديني ولو كان ذلك منهم ادعاءً . ولكن مع مرور الوقت تركوا (تكتيكاتهم) هذه ، وبدأوا يطلقون النار على الجيش الرسمي ، وأصبحوا لا يفرقون بين الأيام المقدسة وسواها في هجماتهم .

عيد الأضحى أثناء الحصار

وفيما كانت هذه المآسي الدامية مستمرة على خط السكة الحديدية ، حل عيد الأضحى المبارك ، ولكن أضاحيه لم تكن صغار الشياه أو صغار الغزلان . إنّ هذا الدم الأحمر وهذا السيل الأحمر الذي ظل يتدفق منذ قرون كان دم الذين بذلوا الروح في سبيل كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ . فكان هؤلاء الفدائيون يمضون إلى الجنة ، ولم يكونوا يفكرون فيمن يتركونه من أمهات عجائز ، وأرامل دامعة عيونهم ، وأبناء فقراء معدمين ، لا يملكون شروى نقير .

نعم في يوم الأحد (١٦ سبتمبر ١٩١٨م) كان عيد الأضحى ، وقبل صلاة الصبح توافد الجند والأهالي والناس عن بكرة أبيهم ، إلى الحرم الشريف ، وحل وقت التكبير والتهليل ، وأقيمت صلاة العيد ، ولم يكن بإمكان أي شخص أن يقول شيئاً لشخص آخر ، وكان الجميع يخافون ، وكانت الألسنة تسكت لتتحدث العيون .

ولم تكن الطرق تفتح ، ولم يكن الحصار يُرفع ، وكانت المؤن تنفد ، وكان الأجل يوافي الأصدقاء ، وكانت قوة الحملة تسحق . كان كل شيء يقترب من النهاية . لكن قدسية المهمة ، والشرف التاريخي ، كانا يأمران - باستمرار - قوة الحامية في ظل إمكانيات تحت الصفر .

الأمر بتسليم المدينة وتداعياته على القيادة والجنود

وبينما كان خطر المجاعة يطل برأسه على الحامية ، جاء ما يلي :

في يوم (٦ نوفمبر) ورد الخبر المشؤوم الذي هز لاسلكي المدينة أياماً ، وفتَّ في عضد حاميتها ، وقد بلغ هذا الخبر إلى لاسلكي المدينة بواسطة ينبع البحر . وقد جاء فيه :

« إلى الفريق فخر الدين باشا ، قائد المدينة .

إلى الميرلواء محيي الدين باشا ، قائد عسير .

بعد ما أبرزتموه من تضحيات تتحير فيها العقول ، في سبيل الدين والشرف ، لحقت الهزيمة بحلفنا ، الأمر الذي حمل الدولة العثمانية على عقد الهدنة مع دول الحلفاء . وقد جاء في أحد بنود الهدنة شرطٌ يقضي بأن تستسلم القوَّات العثمانية في الحجاز ، وعسير ، واليمن ، إلى أقرب قائد من قادة جيوش الحلفاء .

لقد بقيتم منذ سنوات تذودون عن شرفكم العسكري ، وبالطبع فإنكم تدركون أن الرضا بذلك الحكم ، إنما هو أمر نابع من حب الوطن ، والرغبة في إنقاذه من فناء محقق ، لقد بذلتم من التضحيات ، وأظهرتم من ضروب البسالة ، ما حاز على إعجاب وتقدير الجميع حتى خصومكم وأعدائكم ، وأنا على يقين من أنكم سوف تتحملون هذا الحمل الثقيل بكل رباطة جأش وطاعة . وأرجو أن تكونوا واثقين من صدق نوايا (إنجلترا) التي لم تتقاعس عن إبراز حسن النوايا بشأننا ، وأتمنى من الله العلي القدير أن تعودوا في القريب العاجل سالمين ، إلى أرض الوطن العزيز ، تحياتي لكم جميعاً » .

الصدر الأعظم وناظر الحربية

أحمد عزت

وقد كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على القائد وسائر من علموا به . وعلى الرغم من أن الباشا قد نجح في التكتم على المسألة ، من أجل سلامة الحامية ، وأمن القلعة ، فإنه مع الأسف لم يمنع نفسه من أن تغتم ويتغشاها شعور بالقهر والمرارة ، من هذا الخبر .

وقد بُثَّ هذا الإشعار من خلال (لاسلكي) العدو ، وتكرر هذا الأمر لعدة أيام ، الأمر الذي أثار شكوك قائد القلعة . وفي هذه الفترة كان مركز بورسعيد يتصل (بلاسلكي) المدينة عدة مرات يومياً بواسطة (لاسلكي) ينبع البحر يسأله عن الرد ، وكان العدو يريد أن يعرف ما إذا كانت حامية المدينة قد علمت بالإشعار أم لم تعلم ، وكان يريد كذلك إبلاغ ذلك الإشعار لمن يلزم إبلاغه به . **وقد قابل الباشا هذه الحركات كلها بالصمت المطلق ، وكأن ذلك الإشعار لم يأت إلى المدينة قط ولم يعلم به أحد** ، وكأن موجاته الكهربية لم تؤثر قط في (الهوائيات) التي كانت تملأ آفاق المدينة . وقد كان الباشا القائد يقول :

« أليست عبارة (أن تعودوا في القريب العاجل سالمين إلى أرض الوطن العزيز) عبارة غريبة ؟ » .

وفي تلك الأثناء كانت (الأنفلونزا الأسبانية) مستمرة في صورة وباء مخيف ، وكانت تعصف بالضباط والجنود وتهلكهم ، ولم يكن رجال الحامية يتلقون أية أخبار عن أحوال عائلاتهم ، وقد ازدادت حالتهم سوءاً بانقلاب الوضع – بشكل عام – ضدهم . ولم يكن ممكناً مكافحة (الأنفلونزا الأسبانية) بلا وسيلة أو علاج ، وتمدد أفراد الكتائب والسرايا جميعاً على الأرض ، وكان الجميع يعانون أزمة عظيمة .

الخطبة التي ألقاها فخر الدين باشا باكير

وفي يوم الجمعة تحرك الباشا من أمام اسطوانة التوبة في خشوع تام ، وتقدم المنبر بخطوات متثاقلة ، ورفع يده وابتهل إلى المولى عز وجل .

وفي بطء وتؤدة صعد المنبر حتى الدرجة السادسة منه ، وترك المظاريف التي بيده على السلم ولبس نظارته ، وكان قد كتب الخطبة التي سيلقيها ، وكانت الورقة تهتز في يده ، وبدأ الكلام بصوت خفيض ، وكان صوته يخبو من شدة الانفعال ، وأنفاسه تختنق إلى أن جاءت عليه لحظة دمعت فيها عينه من شدة

التأثر ، وأوشك على البكاء ، وكان صوته يشبه صوت الطفل البريء الذي على وشك البكاء . ولم يكن ممكناً أن يستمر في الخطبة بصوت كهذا ، لأنه لو استمر في ذلك لما استطاع أن يحبس دموعه ، وما عاد بإمكانه أداء واجبه تجاه رفاقه في السلاح ، الذين هم بحاجة إلى أن يبثهم القوة والتماسك ؛ لهذا اضطر إلى التوقف ، وأخرج منديله ومسح عينيه ، وبدا كمن يمسح نظارته . وفي تلك اللحظة التي لم تدم أكثر من بضع ثوانٍ استطاع بالقوة التي استمدها من عقله ؛ أن يتمالك نفسه ، ويكبح مشاعره ، وتابع خطبته بصوت جهوري .

ولم يكن في الإمكان تذكر الجمل التي قالها بالنص ، لأننا جميعاً كنا نكفكف دموعنا بمناديلنا ، ولم يكن ممكناً ألاّ نبكي . وكانت القضية المطروحة هي حقوق وواجبات خليفة المسلمين في حضرة النبي ﷺ . ويبدو أن عاقبة آخر البواسل الذين تولوا الذود عن الحرمين الشريفين لأكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، عاقبة وخيمة ، إلى حد كان البكاء غير كافٍ أبداً ، وعدم البكاء غير ممكن كذلك .

وأخيراً انتهت الخطبة ، ونزل الباشا من المنبر ، ورفعت الأعلام .

وبدأت تنتشر شائعات حول الاستسلام وتسليم المدينة للحلفاء والمتمردين ، **وقد هزت هذه الشائعات حامية المدينة ، ونالت من عزمها وإيمانها ، لكن الباشا لم يبالِ بأية واحدة منها** ، وكتب ردوده ، حتى إنه قد احتد كما لم يحتد من قبل ، على اعتراض أمين بك وكيل رئيس الحربية ، وقد ادعى أمين بك أنه من الأنسب الجلاء عن القلعة ، وتسليمها تطبيقاً لأمر وزارة الحربية خاصة ، وأن هناك مئة وخمسين شخصاً يموتون يومياً من المرض . ولما كان (الميرالاي) نجيب بك الذي كان حاضراً في مجلس التشاور يعلم أن الباشا القائد هو المسؤول الأول والأخير عن القلعة ، وصاحب الكلمة في الدفاع عنها ، فقد قال : كيفما تشاء ، وقال إبراهيم بك وكيل مدير الشعبة الأولى لأركان الحرب : إنه يؤثر الانتحار على أن يستسلم إلى العربان .

وفي تلك الأيام كان وباء (الأنفلونزا الأسبانية) الذي لم تأخذه رحمة بحامية المدينة يفتك بأفرادها فتكاً ذريعاً ، فكان المصابون به من ضعاف الأبدان بَدءاً ، ينتقلون إلى رحمة الله تعالى ، في غضون يومين أو ثلاثة .

ولم يكن الباشا يجد الدواء الذي يعطيه إلى الجند ، فكان يزيد من حصصهم من الأرز والسمن ، وكان يأمل أن يعوضهم عن العلاج بعدة سعرات حرارية ، يضيفه إلى غذائهم ، لكن المرض لم يكن يرحم قط ، وكان يملأ مقابر (جنة البقيع) بمن يصادفهم .

وهنا حق علينا أن نشيد بالجهد الذي كان يبذله أطباؤنا ليل نهار .

بدء حركة التمرد في صفوف الحامية

وراحت شائعات أنصار تسليم القلعة واستلام الحامية تفتك برجالها ، وكان يتولى كل ذلك الضابط أمين بك ، فأصدر البيان التالي :

« إننا سوف نموت جوعاً هنا . لِم ؟ ، ولأي هدف ؟ . أي قوة لنا اليوم، وأي قوة نثق بها ؟ ، وسوف نضطر إلى الجلاء عن كل الأماكن التي تحت أيدينا ، ونستسلم لأقرب قادة الحكومة العربية منا ، ليسلمنا إلى الموضع الذي سوف يعينه أقرب قادة قوات الحلفاء ، في مصر ، وسوف نسلم سلاحنا كذلك ، بالصورة التي أوضحتها حكومتنا » .

غير أنه قد تشوش تفكيرهم وانقلب رأساً على عقب ، وفقد أمين بك المنقذ الزائف هدوءه وسكينته ، واستبد به القلق والانفعال . وكان من المتعذر إعطاء قرار ، ولم يكن بإمكان من ليس لهم القدرة على مجابهة الموت ، القيام بحركة مشروعة وإيجابية . وفي النهاية كتبوا صفحة ملطخة بالعار في تاريخ الترك المجيد ، ستظل إلى يوم القيامة ، وتخلّوا عن مرضى الطابور والضعفاء الذين في طور النقاهة ، وزملائهم غير القادرين على السير ، وبدؤوا في حركتهم وأخذوا معهم أهم قطع البنادق الآلية ، والمدافع كيلا يُطلق عليهم النار من خلفهم ، ولاذوا بالمتمردين ، وتركوا أهم نقطة في القلعة فارغة تماماً .

وكان الباشا القائد في اجتماع مع الضباط الذين جمعهم في مقر القيادة ، إذ تلقى الخبر بالواقعة ، فاجتهد كي يكظم غيظه وحدّته كيلا يحس أحد بها ، وأراد الاستمرار في الاجتماع ، غير أنه لم يفلح ، وقال : إنه سوف يعطيهم المزيد من التفاصيل في اجتماع آخر ، واستأذن مدعويه .

وفي يوم الخميس (٣ يناير ١٩١٨م) ، احتلت مفرزة من البدو قوامها ستون شخصاً ، حدائق (تبة المدور) و (الصديقية) و (المقبولية) و (الشكرانية) ، لكن المدافع التي أطلقت من (تبة المهد) أجبرت المتمردين على الفرار مباشرةً .

وبدأت حركة التمرد والعصيان في صفوف الحامية ، بعد أن تفاقم وضعها المزري ، وبعد أن شاعت فيها مسألة الهدنة والصلح ، وأنهم سوف يعودون إلى بلادهم ويلتقون أسرهم وأولادهم ، ولتدارك الأمر قام فخري باشا بتوزيع هذا البيان في صباح يوم الجمعة (٣ يناير ١٩١٩م) .

« رفاقي في السلاح وإخوتي في الدين :

بسبب خيانة (البلغار) ، اضطرت الحكومة إلى توقيع هدنة منفردة ، ومرت أساطيل الحلفاء من (جناق قلعة) وتزلزلت استانبول تحت مدافع سفن الأعداء ، فكتب ناظر الحربية المقيم بها رسالة ، أرسلها إلى القيادة مع اليوزباشي (ضيا أفندي) الذي قدم المدينة المنورة ، ورجع عنها من قبل ، يطلب إلينا الاستسلام ، وتسليم المدينة المنورة .

وبدلاً من أن نموت في المنفى في مصر ، في ذل الأسر ، ريثما يبرم الصلح ، أو نموت في أعمال السخرة في شق الطرق ، وإقامة الحصون ، خيرلنا وأجدر بنا أن نلوذ بحمايته سبحانه وتعالى ، الذي لم يتركنا جياعاً ، وننزل ضيوفاً على رسولنا ﷺ .

لقد أعلن أمين بك للضباط والجنود في البيان الذي قرأه عليهم أن الهدنة قد أبرمت منذ شهرين ، وأنها تعني بالنسبة لنا الصلح . وأنه قد تم تسريح الجيوش التي في وطننا الأم . لِمَ لَمْ يتحدث عن إخواننا الأسرى الذين يُسامون الخسف والهوان في مصر الآن ؟ . لِمَ لَمْ يتحدث عن أبنائهم ؟ . وما دام من المقرر أن نُسرَّح فإننا نسأل : وماذا ستكون مهمتنا في مصر ؟ . إن جلاءنا عن المدينة واستسلامنا دون قيد أو شرط ، مسألة عظيمة للغاية ، أعظم من أن تُحل برسالة ناظر (وزير) . ما دام لنا قائد أعلى وخادم للحرمين .

« رفاقنا في السلاح ، إخواننا في الدين :

لنستح من البدو الذين يواجهوننا .

انظروا إلى هؤلاء الرجال الذين نناوشهم القتال منذ عامين ونصف إنهم لم يتخلوا عن جرحاهم ، ولا حتى عن قتلاهم في أي وقت من الأوقات ، حتى وهم يلوذون بالفرار .

أنسقط فريسة للهمِّ والحزن ؟ أنرحل ؟ إلى أين نرحل ونترك مرضانا المساكين ؟ لمن نتركهم أمانة ؟ ألم نأتِ إلى هنا سوياً ؟ أليس من الواجب أن نمضي كذلك معاً ؟ .

لقد أكلنا لزمن طويل من مائدة واحدة ، وحاربنا في خندق واحد ، والآن كيف نتخلى عنهم ونتركهم يصطلون بنار الحمى ؟ إلى أين نهرب دون أن نخلص ذمتنا من الذين ماتوا محمومين ؟ حتى ولو لم يكتب لنا الله أن نلتقي في الدنيا ، ألن نلتقي معهم وجهاً لوجه غداً في الآخرة ؟ .

أيها الأصدقاء : إن الانسحاب والأسر لن يحقق لنا شيئاً ، وإذا ما انفرط عقدنا وتبدد شملنا ، فسوف نصبح جميعاً أذلاء . لنتكاتف ونصمد ، وها هي حصصنا من المؤن قد زادت ، والمخابرة تعمل باللاسلكي الآن ، وننتظر الرد .

لقد حاربنا وصمدنا لبضع سنوات لنصبر بضع أيام ، إن الله مع الصابرين » .

عدد كبير من جنود الحامية يلوذون بالفرار

وفي ليلة ٢ أو ٣ (يناير) ١٩١٩م قامت الفرقة السابعة التي بقيت في الطابور الثاني للواء الثاني والأربعين الذي رابط في تبة العاص وتبة المهد ، وبعض ضباط المدفعية ، والفرقة الأولى من لواء البغالة الذي كان قد احتل خنادق طابور (العيون) ، وأفراد المدفعية الموجودين في جبل (جهنم) والفرقة الرابعة من الطابور الأول للواء الثاني والأربعين ، قام كل هؤلاء بترك مواضعهم وخنادقهم ولاذوا بالفرار .

وخُطّتْ بذلك ثالثة الصفحات السوداء في ملحمة الدفاع عن المدينة ، ولم يفتر أنصار الفرار عن المعركة ولم يقفوا متعطلين ، فلم يكن هدفهم الفرار فحسب بل يرون ضرورة عزل الباشا .

ويبدو أن شطراً من القوَّات الموجودة داخل المدينة المنورة ، خاصة المقيمين في معسكر (العنبرية) كان قد صح منهم العزم على الهرب من معسكر الباشا ، ومعهم نحو أربعين من الخيالة الأتراك ، وأن الآخرين لما لم يكن باستطاعتهم مواجهة الباشا ، فقد بعثوا (بالميرالاي) نجيب بك و(الميرالاي) عبد الرحمن بك

ليعلموا الباشا بالوضع ، ودخل نجيب بك أولاً حجرة الباشا في خطى متعثرة ، وقال :

- معذرة سيدي القائد ، كنت مريضاً فلم أستطع المجيء من قبل .

فرد عليه الباشا قائلاً : ما شاء الله يا نجيب بك ، لقد شفيت في الحين المناسب .

فأخذ نجيب بك وعبد الرحمن بك يسترحمان الباشا بقولهما :

إن الجنود تترك الجبهة تباعاً ، ولم يعد في الإمكان الصمود والدفاع .

وقالا أيضاً : ارحم الجند يا باشا ، وارحمنا نحن أيضاً .

فاستولى اليأس والذهول على الباشا ، حتى إنه لم يعِ شيئاً من الكارثة التي تدار أمام ناظريه ، وقال :

إني أرى (الأشراف) متمردين خرجوا على الخليفة ، ولا أستطيع أن أدخل معهم في مفاوضات . فقال نجيب بك وعبد الرحمن بك :

تلطف بنا سيدنا القائد .

فرد عليهما بقوله :

بإمكانكما الذهاب إليهم إذا أردتما .

وفي يوم الجمعة (٤ يناير ١٩١٩م) غادر المدينة (الميرالاي) نجيب بك وعبد الرحمن بك وصحبهما صبري بك قائمقام رئيس الإدارة (واليوزباشي) كمال بك وكيل كبير الأطباء قاصدين بئر درويش ، وذلك لتسليم رجال حامية المدينة المساكين إلى قبضة أعدائهم ، وتسليم القلعة وهي مسند الخلافة إلى المتمردين .

والحقيقة فإن أمين بك رئيس الهاربين أرسل برقية عاجلة من بئر درويش - مقر المتمردين - إلى نقاط الحامية يدعوهم للاستسلام واللحاق به . وأضفى على بيانه صفة رسمية ، بأنه ينفذ أمر قيادته في استانبول .

وكانت حامية المدينة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، والقلعة تسقط ، وبفتنة دنيئة طويت صفحات ممتلئة ببطولات الدفاع عن المدينة .

وفي صباح يوم الأحد (٥ يناير ١٩١٩م) أيقن فخري باشا أنه لم يعد بالإمكان المقاومة ، فأصدر أمراً قال فيه :

إذعان فخري باشا لأوامر التسليم

بسبب أحوالي الصحية قمت بتعيين (الميرالاي) نجيب بك قائد الفرقة الثامنة والخمسين ، وغداً سوف أمضي إلى (بئر درويش) ، وأرجو المعذرة إن كان قد صدر مني خطأ في حقكم .

فخر الدين باشا

وخيم جو من البؤس واليأس على المدينة ، ولم يكن أحد يعلم إلى أين ستسير الأمور به . وبات الجند لا يملكون الحراب والبنادق ، التي في أيديهم ، ولم يعد الضباط هم أصحاب المسدس والسيف المعلق في خصورهم ، واستبدت بهم الحيرة والوله ، لدرجة أن بضعة رجال من البدو تسلقوا جبل جهنم وأمطروا مركز الطابور الأول المنسحب إلى (بئر علي) ومركز اللواء الثاني والأربعين بوابل من الرصاص ، وعلى الرغم من أن قائد اللواء كان موجوداً في سفح الجبل ، فإن ضباط الطابور وجنوده كافة لم يردوا عليهم .

وقد استرحم قائد اللواء الباشا القائد الاتصال بالشريف علي ليوقف هجمات رجاله على قواتنا . وفي تلك اللحظة كنت بجانب الباشا . وكان والغضب واليأس متمكنان منه ، كأسد ربط قدمه في يده .

وقال الباشا في رده : « إن لم تستخدموا ما في أيديكم من سيوف وحراب في وقت كهذا ، فالموت أفضل لكم » . فبهت قائد اللواء ولم يستطع مواجهة الباشا ، وراجع نفسه ، ونشر البيان التالي بتوقيع أركان حرب إبراهيم بك :

« أخبرنا (الميرالاي) نجيب بك أن الشريف علي كان قد أصدر أوامره بعدم اقتراب البدو من محيط المدينة ، وعدم قيامهم بشن أي هجمات . وأنه إذا ما اقترب أحد مخالفاً بذلك هذه الأوامر ، فمن المناسب دفعه بقوة السلاح » .

وفي النهاية قال الباشا : « أحضر تلك الحقائب » وكانت إحداها هي حافظة الوثائق السرية الخاصة بالباشا ، أما الأخرى فكانت حقيبة أوراق أمين بك . وقد خمَّنْتُ أنه سوف يأمر بإخفائهما أو التخلص منهما ، وانزوى إلى حجرته الخاصة . وكان مصباح حجرة الباشا يبدو من خلال حديقة مقر القيادة . ولم

يعرف النوم سبيلاً إلى عين الباشا أبداً في تلك الليلة حتى مطلع النهار . وقد أنفق الليل في ترتيب الأوراق الباقية وتنظيمها . وكانت أفرع أركان الحرب قد شُغلوا في تلك الليلة ، حتى صباحها بإحراق الوثائق والخرائط لكيلا تقع في أيدي العدو ، وقاموا كذلك بإلقاء مسدساتهم في الآبار وكسر سيوفهم . وقضي كل شيء ، وسقطت الآمال وكأنها أوراق الشجر الذابلة .

ومن جهة أخرى أبلغ (الميرالاي) نجيب بك وكيل قائد قوة الحملة أول أوامره كالتالي :

« لقد تم التوقيع على شروط الجلاء عن المدينة ، وسوف تسلم المدينة وما يليها من مواقع تباعاً لمندوبي الأمير . وتقضي شروط التسليم بعدم تسلل العربان إلى المناطق التي يتواجد بها الجنود . اشرحوا ذلك جيداً للعربان . والأمير لا يرضى قطعياً عن مثل هذه الأشياء ، ولا عن إراقة الدماء بين المسلمين . وإن لم يكن في الإمكان إقناع العربان بذلك ، قربوا المخافر إلى المحطة واجلبوا مدافعها بالقرب منها » .

(الميرالاي)

علي نجيب

وفي ٩ يناير ١٩١٩م وكان يوم جمعة ، عندما طلع الصبح ، كانت السيارة قد جهزت للباشا ، فاستقلها إلى الحرم النبوي الشريف ، للقيام بالزيارة الأخيرة ، ووداع الرسول ﷺ .

ولقد سمعت ما وقع من أحداث في هذه الزيارة من يحيى نزهت بك ملازم ثانٍ احتياط محافظ الحرم الشريف ، الذي كتب يقول : « وقف الباشا القائد أمام (باب المواجهة) والذي لم يفتح منذ وفاة سيدنا عمر رضي الله عنه ، وهو المكان الذي يقابل تماماً ضريح الرسول ﷺ ، وعقد الباشا يده وتمتم ، ثم بسط يده ودعا الله ، ثم انزوى خطوة إلى جهة اليمين ، ووقف أمام أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما .

وكان الموقف مؤلماً ومؤثراً للغاية ، وكان من اللازم أن يكون للشخص قدرة فوق قدرة البشر ، من أجل مشاهدة منظر كهذا ، يقطع نياط القلب . فقد كان آخر قائد من قادة الجيش الذهبي للخليفة ، يخرج من أمام المرقد المقدس للرسول ﷺ ، ليسدل الستار على مرحلة من مراحل التاريخ . وتقدم الباشا بخطوات متثاقلة حتى أصبح أمام مرقد السيدة فاطمة رضي الله عنها ، **وبعد أن قبَّلَ الباشا الغطاء**

المبارك للضريح في خشوع واحترام أخذ يدعو الله ، واستبد به الوجد والشرود ، ثم التمعت عيناه كبارقة أمل ظهرت من بين ظلام اليأس ، وتهلل وجهه ودبت الروح في نظراته وأكمل الدعاء .

وقبيل الظهر اكتظ الحرم الشريف بالزائرين ، وتحلق الجميع حول حجرة رسول الله ﷺ ، لنيل قسط من السكينة والراحة النفسية ، منهم من كان يقرأ القرآن ، ومنهم من كان يستمع إليه . وقدِم كثير من الضباط والجنود للقيام بزيارة الوداع ، وكان الحرم الشريف في هذا اليوم يبدو أكثر روحانية وإشراقاً ، ورغم ذلك كان يعطي شعوراً باليأس والحزن .

وكانت العيون تفتش عن فخري باشا أمام اسطوانة التوبة ، كما هو الحال في كل يوم جمعة ، ولكن كل نظرة كانت ترتد منكسرة انكساراً أليماً .

وصعد الخطيب المنبر ببطء ، وبدأ في قراءة الخطبة ، وأثناء الدعاء وعندما جاء إلى أسماء خليفة المسلمين ، تقلص صوته ، وفيما كان الخطيب المسكين يدعو للسلطان وجنده ، لم يحتمل ، وانخرط في البكاء .

وكان آلاف من العساكر يبكون مع الخطيب ، ولم يكن في الإمكان إلاّ البكاء . لكن البكاء وحده لم يكن يكفي ، ولم يكن في الإمكان غسل العار الذي لطخ تاريخ الدفاع بسيول الدموع . ولم يوفق الخطيب بسبب من تأثره في إتمام الخطبة ، ونزل من على المنبر مسلوب الشعور ، وأغلق الباب ذو المفاتيح الفضية للمنبر ، وبعد صلاة الجمعة قدم المدينة أربعون من الخيالة ، ومثلهم من الهجانة تحت قيادة الشريف (شريف) ، وكانوا يسمون أنفسهم قوة الانضباط ، وكأنهم كانوا سيحققون الأمن الداخلي ، ولكن هؤلاء الجند غير النظاميين والذين كان يطلق عليهم (الجنود المنتظمة الهاشمية) انبثوا في الأحياء والشوارع ، وبدأوا في أنشطة السلب والنهب حتى جاء وقت اقتصرت أعمال قطع الطريق على هؤلاء ، وكان كلّ من يمر من مناطقهم يسلب ويجرد من كل ما معه .

واستطاعت القوَّات التي تحركت من العلا مع مركز قيادة الفرقة الثامنة والخمسين أن تأتي إلى المدينة في ١١ يناير ١٩١٩م ، وقدموا ومعهم نحو أربعين ألف (كيلوجرام) من الأرز .

وفي اليوم ذاته كان الضباط الثمانون والجنود الألف ، الذين كانوا قد تحركوا من جليجلة ، وكذا الفارون الذين اجتمعوا في (بئر درويش) يتحركون نحو ينبع البحر لدخول المعتقل .

والواقع أنه كان بإمكان هذه القوَّات أن تحتل (بئر درويش) ليس بالسلاح وإنما بالعصي والحجارة فحسب ، وكان في استطاعتها كذلك أن تأسر العربان الموجودين هناك أجمعين .

وكانت قوافل الرحيل تتجهز ، وأذاع علي نجيب بك الأمر التالي على الراغبين في البقاء في المدينة :

بيان

« علمت أن الضباط والجنود ذوي الأصول العربية يرغبون في البقاء في المدينة ، لكني لا أستطيع أن أمنحهم تصريحاً بذلك ، وليس بإمكاني أن أجبرهم على الرحيل ؛ فأرجو أن يكتب الراغبون من الضباط والجنود في البقاء قوائم مستقلة يرسلونها إلى قوة المحطة » .

وفي (١٨ يناير ١٩١٩م) ، وكان يوم جمعة ، كنا نستعد للخروج مع لواء الهجانة الذي تجمع في الميدان أمام المنزل قرب الظهيرة . وكانت الجموع تمضي إلى الحرم الشريف لأداء صلاة الجمعة . وطبقاً لما سمعته في النهاية ، فإن الخطيب سأل (الشريف) عبد الله كيف سيقرأ الخطبة ، فقال : « لو كنت قرأتها دون أن تسأل لكنت سأسكت ، أما وإنك قد سألت ، فإنك ستقرأها باسم والدي بلقب (أمير المؤمنين) . وقرئت بهذه الصورة أول خطبة على منبر النبي ﷺ ، وبكى كل من كان قد ذهب منا إلى هناك للوداع بل وأجهش بالبكاء .

وأعرض فيما يلي على وجه التقريب قسماً من الأسلحة والمهمات ، التي سلمت إلى المتمردين بعد سقوط المدينة :

- ٣٠.٠٠٠ بندقية
- ١.٠٠٠.٠٠٠ قذيفة مشاة (تقريباً)
- ٨٠.٠٠٠ قذيفة مدفعية

- ١ مدفع صحراوي
- بطاريتان للمدافع الجبلية القوية (٨ مدافع)
- بطارية للمدافع الجبلية طراز (كروب) (٤ مدافع)
- بطارية مدافع قاذفة (٣ مدافع)
- بطارية مدافع (طراز شنايدر) (مدفعان)
- ٤ بطاريات مدافع صحراوية (طراز مانتلي) (١٦ مدفع)
- بطارية مدافع جبلية عادية (٤ مدافع)
- بطارية مدافع ذات فتيل (٤ مدافع)
- بطاريتان للمدافع من طراز (نوردانفيلد) (٨ مدافع)
- ٧٥ بندقية آلية نظام (ماكسيم - سواتزلوزا)
- ٢ محطة ضبط لاسلكية بكل تفرعاتها
- أربعة محطات لاسلكية صحراوية بكل تفرعاتها
- ١٢ نظارة معظمة
- سيارتان ركوب
- طائرة بهنجرها

وأخيرًا : ٣٠٠.٠٠٠ كيلوغرام من التمر .

كان الباشا المسكين قد خزّن أجود أنواع التمر منزوع النوى ، وسأل الجنود الذين صادفهم في الطريق أثناء ذهابه إلى الأسر : « هل قدموا لكم تمراً منزوع النوى ؟ » .